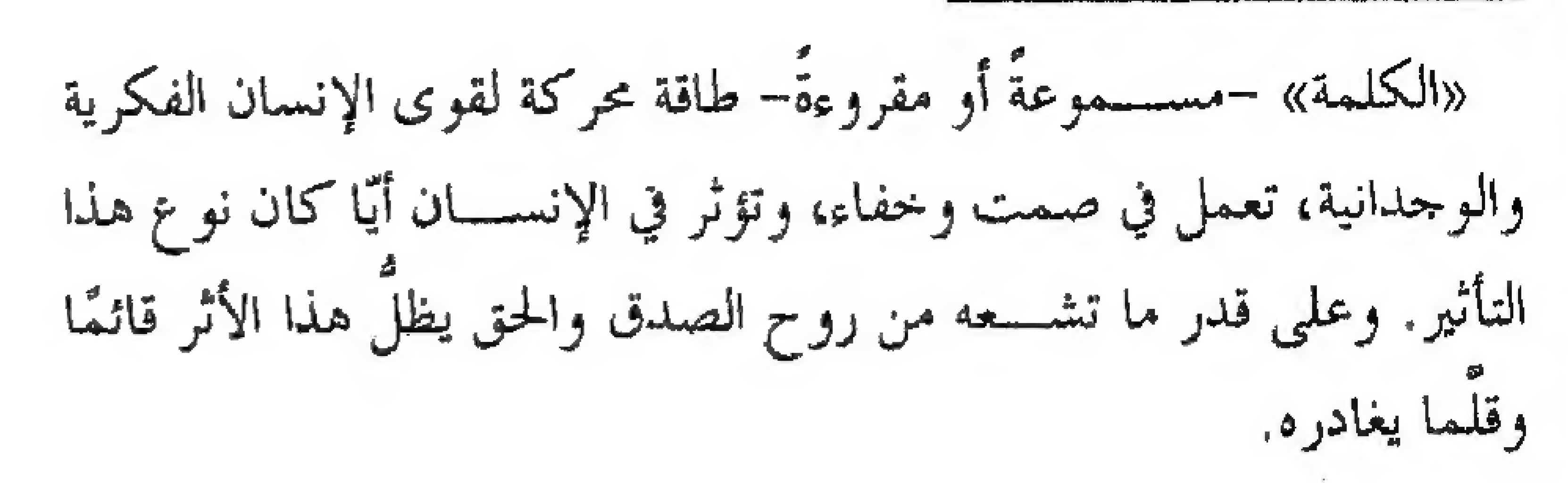


حراء
www.hiramagazine.com
العدد الرابع/السنة الأولى/(يوليو - سبتمبر) 2006
مجلة علمية ثقافية فصلية
• لدى استكشافنا خط السير – فتح الله گولن
• روح الحضارة الإسلامية – أ.د. محمد عمارة
• والبحرِ المسجورِ – أ.د. زغلول النجار
• علاقة المعرفة بالقيم – أ.د. خالد الصمدي
• البحث عن فرس إسطنبول – فريد الأنصاري



## القلم المبدع

«الكلمة» -مسموعةً أو مقروءةً- طاقة محركة لقوى الإنسان الفكرية والوجدانية، تعمل في صمت وخفاء، وتؤثر في الإنسان أيًّا كان نوع هذا التأثير. وعلى قدر ما تشعه من روح الصدق والحق يظلُّ هذا الأثر قائمًا وقلّما يغادره.

فالإنسان -في الحقيقة- ابن الكلمة... هي التي تبني فكره وتُهَندس وجدانه، وتثير مخيّلته... و«الكلمة الصدق» فيها من روح صاحبها شعاع نافذ إذا سرى فليس له من دون الإنسان دافع أو مانع.

و«الكلمة» لا تكون عظيمة التأثير في المتلقي إلاّ إذا أشاعتْ من حوله أجواء إيحائية تستدعي معاني جديدة تتجاوز معناها القريب الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة. فقوة «الكلمة» ليست بالكلمة نفسها بل بما توحيه للمتلقي من أفكار، وبما يتناسل منها من معانٍ أكثر سعة وأكبر أثرًا.

والقلم المبدع الذي يتفجر فكرًا إبداعيا جديدا هو ما تسعى إليه «حراء» وترغب أن تراه فيّاضًا بإبداعاته على صفحاتها. و«حراء» باستقطابها لمثل هذه الأقلام المبدعة ستتحول مع الزمن إلى مدرسة فكرية مرموقة إن شاء الله، تحمل على عاتقها مهمة إثراء القارئ الكريم بلون جديد من الفكر.

فمقالات هذا العدد من «حراء» تكاد تصبُّ في هذا الاتجاه، غير أنّ الطريق للوصول إلى هذا الهدف المرجُوّ لا زالت بعيدة، وتحتاج إلى مزيد من الوقت، وقد وصفها الأستاذ «فتح الله» في مقاله الموسوم «لدى استكشافنا خط السير»، وعلّم معالم، ووضع إشارات، وحدّد حدودًا كي لا يتيه عنها الرواد الراغبون في سلوكها.

وإنّ عملاقا كبيرا من أمثال «الشيخ البوطي» في مقاله «الإسلام بين العقل والقلب» يفتح طريقًا جديدة لفهم الإنسان من خلال الإسلام، وهل الإنسان أكثر من عقل وقلب؟! أما المفكر الكبير وفيلسوف المغرب الشهير الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن فمقاله القيم عن «فلسفة البشر وحكمة القرآن»، فهو فريد في بابه، ويسعدنا أن يتحفنا في كل عدد بواحدة من درره الفكرية المتألقة. وأما الكاتب الإبداعي الذي هو ملء الفكر في العالم العربي والإسلامي فضيلة الأستاذ الدكتور «محمد عمارة» فيتحفنا بمقاله الخطير المبين عن روح الحضارة الإسلامية، هذه الروح التي تكاد تختفي معالمها. علاوة على ما سيطالعه القارئ الكريم من لمسات أدبية وشعرية... وإلى دراسة جديدة في أسلوب تذوق الفن الإسلامي، إلى غير ذلك من المقالات الابتكارية في الشكل والمضمون.

إن هذه المجموعة المباركة من كتّاب هذا العدد من «حراء» تبعث في القارئ الأمل بأنّ عالمنا الإسلامي لا زال يزخر بطاقات فكرية هائلة في شتّى صنوف المعرفة، وإنّ التقاءهم على صفحات «حراء» مسألة قدرية ذات مغزى عميق قد يأتي تفسيره في القابل من الزمن، وما ذلك على الله بعزيز.

بسم الله الرحمن الرحيم




العدد الرابع / السنة الأولى

(يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٦


## التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

## شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

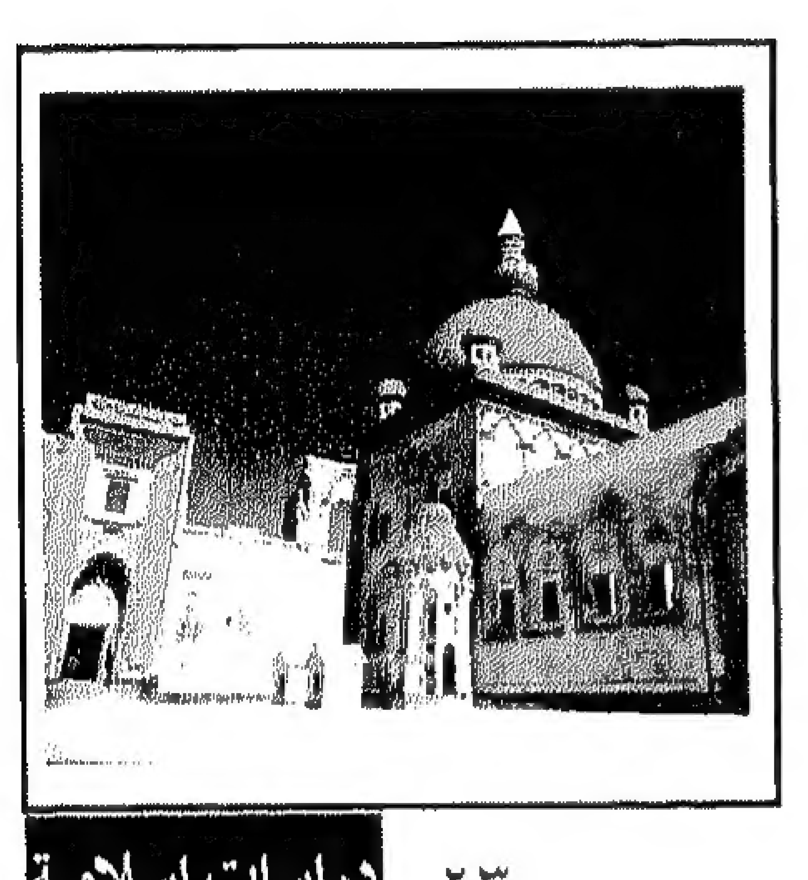
يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

# المحتويات










حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
حسام الدين السيد
hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

وحدة البحوث والتنمية
أجير إيشي يوق
eisiyok@hiramagazine.com

الإخراج الفني
أسيد إحسان الصالحي
usalihi@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur sok.
No:5 34676
Üsküdar - İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
e-mail:
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20127874552
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
Bediralp Mat. Tic. San. AŞ.
Litrosyolu No: 4/1 Blok
Topkapı/İstanbul
Tel: 02126124359

رقم الإيداع
1306-1879

Yayın Türü: Yaygın süreli yayın



# لدى استكشافنا خط السير

فتح الله كولن

تعرض الإسلام منذ حرماننا من إرث الأرض إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغرباً أن يكون الظلم والغدر شعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يحتمل ولا يطاق. ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا، حين يستعيذ بالله من جلادة الفاجر وعجز المتقي.

لا ينكَر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما، وجمودهما، بل تكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفَلَك النبوي... وحجَب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطّل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم. ويبدو واضحاً أن إزالة واقعة الانحراف هذه، المزمنة والمستقرة بهذه الدرجة المشهودة في مسلمي القرون الأخيرة، وفي المرشدين المسلمين خاصة، لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة.

إن إزالة هذا الانحراف الهرِم، المادّ جذوره إلى عصور خلت، المُمَدّ بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وإثارتنا للشعور الإسلامي من جديد بمنطق إسلامي وعقل إيماني، وإلى جهد متواصل وهمّة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافد وأمل حيوي وإرادة صلبة وتأنٍّ بعد تأنٍ. وبخلاف هذا، إن لم نجد أسلوبنا الذاتي، و لم نبرح تخبطنا في البحث عن سبل الخروج من الحفرة التي سقطنا فيها في غير مظانها، فإننا نخدع أنفسنا ونعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى.

## إحياء الفكر الإسلامي

لذلك، لا مناص من إحياء الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي من أجل الاقتراب من فهم الوجود بنظر إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بالمنطق نفسه. ويلزم لذلك؛

أولاً: الاستشعار، فالتعقّل، بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة لنفس الأمر، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها، متساندة بعضها مع بعض، منفتحة الأجزاء فيما بينها، فكأنها نغم مسبوك من أصوات متنوعة بأسلوب واحد تعبيراً عن طابع معين، أو نقش مركزي تحيط به نقوش أخرى لا بد لها من روابط معنوية تشدها إلى المركز.

ثانياً: أن يحمل الإنسان العقل والفكر إلى تفهم المناسبات بكلية وجمعية في عموم الأشياء وعموم الوقائع المعروضة لمطالعتنا، بمعانٍ ومحتويات وحكم لا تحصى، ككتاب لمنظومة حكم غير متناهية... أو كأثر فني يعكس ملايين الألوان للشؤون الإلهية فيغرق العيون ببريقه وتلألئه، وبرؤية وبصيرة ثاقبة تُبصر من خلال الجزئيات ما وراء ستار الكليات، من

غير أن تتعثر بحوادث جزئية ومنفردة منها؛ ومن خلال الكليات تبصر الامتداد إلى أبعد تجمعات الجزئيات. ذلك، كيلا ينقض، أو يُذوي، أو يضاد، قسم من جهدنا لقسم آخر منه، أو جزء من فكرنا لجزء آخر، أو مدة من زماننا لمدة أخرى.

ولا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أننا لا ندعو إلى التخصص أو التفرع. فالخير في أن يتخصص امرؤ في فرع من الفروع، ثم يرتقي إلى ذروة عرش الكمال فيه، ويسعى إلى نيل أرقى المنى في تلك الساحة... لكن مع العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله، بل بمقصده وغايته، في أثناء سعيه وجده. ولا بد أن يتحقق هذا، سواء بالشعور التضامني المشترك، أو بسائق العلم والحس، أو بعمل منسق متكامل، أو بالدهاء العقلي. فلا شبهة ولا شك في حاجتنا الماسة إلى هذا النظر الكلي والشمولي، والتقييم العمومي والموضوعي.

### الحاجة إلى العقل الموضوعي

نعم، الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقلٍ موضوعي يتصور الأمس واليوم معاً، قادرٍ على التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوبٍ في الموازنة والمقارنة، منفتحٍ على بُعد أسباب الوجود وعلله، محيطٍ بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها، حَكَمٍ فيما يغلط فيه علم الاجتماع وعلم النفس أو يصيب، رقيبٍ على تحول أحوال الحضارات بالولادة والموت والتقهقر، مقتدرٍ في التمييز بين الغاية والوسيلة، مالكٍ لسلامة الوجدان واستقامة الفكر، محترمٍ للمقصد، خبيرٍ بحكمة التشريع ومراد صاحب الشريعة، عالمٍ بالأسس المحضة لأحكام الدين، مُستَقْبِلٍ للواردات الإلهية.

إن أبطال الإدراك الذين يؤدّون وظائف مثل فتح الآفاق أمام نظامنا الفكري المنغلق... ويشغّلون تبلّدنا في المحاكمة العقلية المتقادمة المبتعدة عن السماوية بتدويرها في الفَلَك القرآني... ولا يغفلون أثناء ذلك عن المناسبة المفعمة بالسر بين الكائنات والإنسان والحياة... ويمثلون أنموذجا للدين بجسد إحياء الأوامر الدينية وتحقيقها بحرص بالغ، إلى جانب مراعاتهم أصلاً مهمًا من أصول الدوام والتمادي في السبل المسلوكة، وهو التوافق مع آفاق صاحب الشريعة في التيسير والمواءمة والمسامحة، حتى تكون سمته فيضان التبشير وترك التنفير... وإنهاء العقم المزمن منذ قرون بتسليم قوة العلم والتفكر لإمرة الإسلام وتفسيره... وتحويل كل مكان، مدرسةً أم معبداً، شارعاً أم مسكناً، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامنة خلف الوجود والحياة والإنسان... وتشغيل منافذ الرؤية المتأملة في اللانهاية، والتي يمتد زمان تعطلها إلى قرون، بل إلى ردح أبعد من قرون... وتقديم أجندة حضور الإسلام في مراتب النظر دوماً وفي وحدات الحياة كلها... وتحكيم الحساسية في قضية السبب والنتيجة حسب مبدأ تناسب العلّية، والتصرف الرياضي والعقلاني... هؤلاء، هم مَن يعينوننا في التجدد، ويعلّموننا أركان الحضور والوجود الدائم الأبدي.

### الاهتمام بالأسباب

وقد يستنكر ويكره بعضهم هذا الاهتمام بالأسباب المُوفي إلى مباهاتها بنفسها وسوء أدبها. وأنا أشارك في هذا الذهاب والتوجس شيئاً ما. ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة وأننا مخلوقون وهو الخالق. لكن الوجه الآخر للمسألة هو أن الله تعالى قد أمر بقبول شيءٍ يرجع إلينا، شبيه بأمرٍ اعتباري،[1] كداعية إلى إرادته ومشيئته، وجعلَ لها أهمية، ووعد بتحقيق أعظم الأعمال بناء على هذا المخطط، وحققها... وقد خلق هذا الشيء الاعتباري وسيلة للإثم والثواب، وجعله أساساً للجزاء عقاباً ومكافأة، وقَبِله فاعلاً في إسناد الخير والشر... ومع أن هذا الأمر الاعتباري ليس مُعَبّراً عن أي قيمة في ذاته، لكنه سبحانه وتعالى أرجع إليه -باعتبار

إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

النتائج المترتبة عليه- قيَما فوق قيَم. ولو لم يكن كذلك، لتوقفت الحياة تماماً، وسقط الإنسان إلى درك الجماد، وبطل التكليف وذهب كل شيء انجراراً إلى العبث. فلا بد من إيلاء الاهتمام به، ومراعاة متطلباته. فإن الله تعالى يُظهر بُعدا خفيا من أسرار قدرته بجعل ذلك شرطاً عاديا في إعمار الدنيا والعقبى، ووسيلة مرعية وشبيهة بزر سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بحراً في قطرة، وشمساً في ذرة وعالما من عدم.

إن حكم الأسباب أو أي شيء آخر لا يجري على الله تعالى، ولا يقيّد إرادته ومشيئته الإلهية. الله يحكم كل شيء. الله هو الحاكم الأحد المطلق. ومراعاة الأسباب وَعَدُّ العلل وسائل صغيرة ليس إلاّ بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقَب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسُنّة الله عقاباً معظمُه في الدنيا وقسمُ منه في الآخرة. وما أحكم جواب الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ: «نَفرّ من قدَر الله إلى قدَر الله»،[٢] حينما استشكل توافق امتناعه عن دخول مدينة انتشر فيها الوباء مع الرضا بالقضاء والتسليم للقدر!

فالأصل أن برمجة الجهود والعمل الحركي حسب النتيجة، وتحويلها إلى غاية المنى، والوقوع تحت عبئها، يورّث قلقاً وعذاباً، ويبعد عن توقير الله تعالى -حاشاه- وكأنها عملية مساومة معه. وإن تعطيل الإرادة والاختيار، وانتظار النتيجة بسلسلة من الخوارق في عالم لا يأبه بالمعتاد هو قناع للأحلام والمسكنة. ألا ينذرنا القرآن الكريم مراراً وتكراراً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة: ٨٢) وأن ما يلقاه الإنسان من خير وشر هو بعمله وفعله وتصرفه؟! ألا يُعلمنا أعظم أنموذج لموازنة القلب والعقل والوجدان وصورة فخر الإنسانية وسيد الأنام ﷺ، بالارتباط الوثيق والتناسب الخفي بين السبب والنتيجة والعلة والمعلول والسعي والثمرة حينما يذكرنا قائلا: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم».[٣]

> ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة وأننا مخلوقون وهو الخالق.

## الإسلام والعقل

إن الإسلام، إذ ينظم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحال اعتقاده وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنسان الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والحسية، مولّداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشاعر لاهوتية التلون، ليحييه في كل آن مرة أخرى في بُعد آخر. يحييه، ليجد الإنسان نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحال المداخلة في الأشياء، ومقام الفهم والاستقراء لأسرار سنة الله. ثم يرى ويستشعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشيئة، وبيانه المبين المترشح من نبع كلامه تعالى، كأنهما وجهان لواحد... ويوازن تصوّره وفكره، وحياته وتصرفاته، وملاحظات دنياه وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعم، إن الإسلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعماق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

من الممكن أن ينتقل الإسلام الذي هو أعمّ عطية من الخالق للكل، إلى منظومة فعالة بواسطة إحسان آخر مما يُعدّ من أوائل إحساناته، وهو الفهرست المعنوي للوجود كله، المتشكل من العقل والوجدان والروح والجسد واللطائف. وسوف نشرح هذه المسائل في مواضعها. ■

---

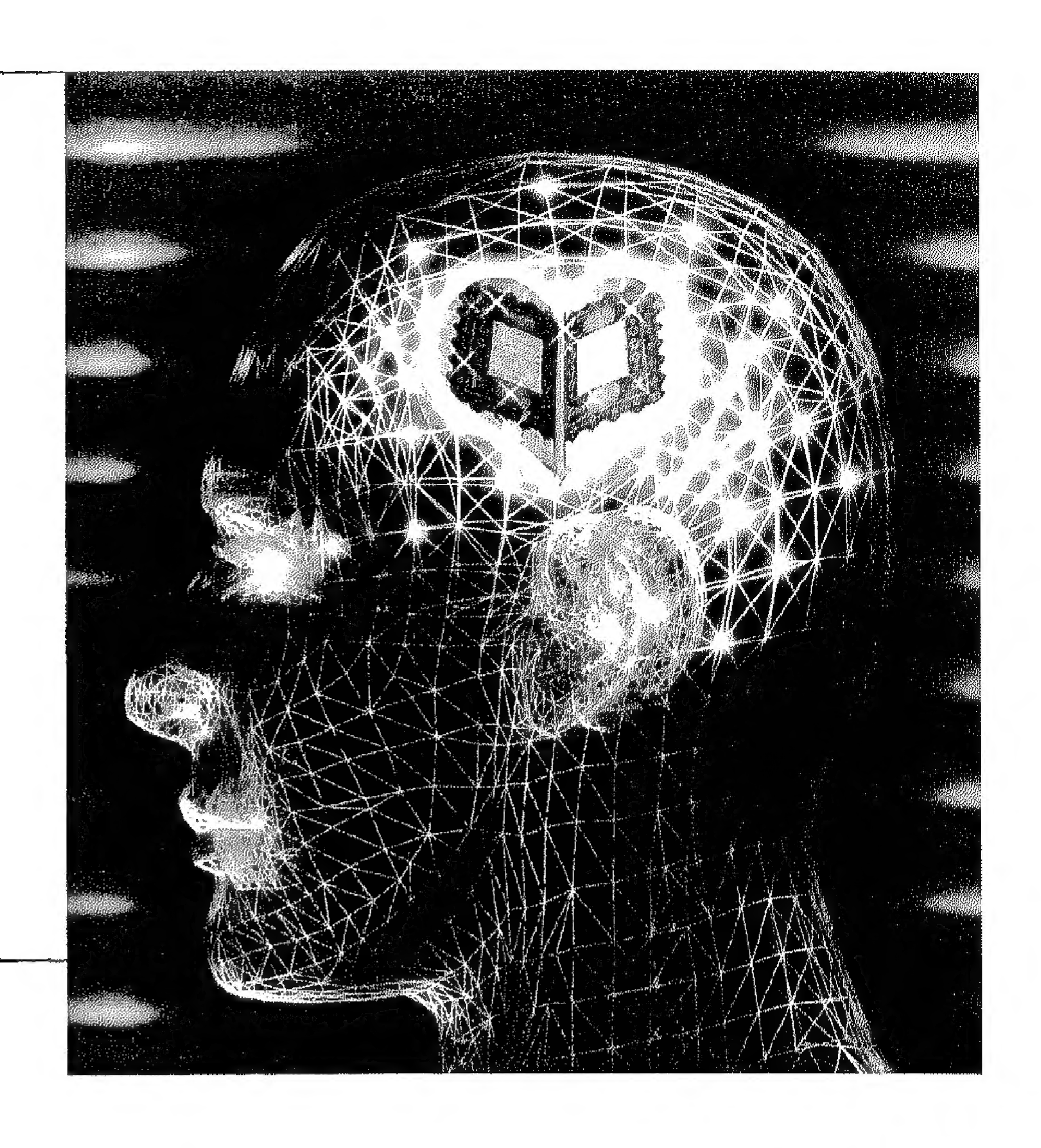
(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلي.

**الهوامش:**

(١) المقصود هنا هو الإرادة الجزئية الموكلة إلى الإنسان. وهو أمر اعتباري لا وجود له خارج العقل. (المترجم)

(٢) البخاري، الطب، ٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨

(٣) الترمذي، كتاب صفة القيامة.



# الإسلام بين العقل والقلب

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

خلق الله الإنسان، وجهّزه بحقيقتين عظيمتين، هما: العقل والقلب، وأقام كلاًّ منهما على وظيفة لا يتأتّى أن يقوم بها غيره، ولا يصلح من دون تحقيقها شيء من أمر الدنيا أو الآخرة.

أمّا العقل، فوظيفته أن يُقبل على الأشياء فيدركها على حقيقتها، وأن يستدلّ بظواهر الأمور على ما وراءها، وأن يتوصّل من وراء ذلك إلى معرفة الله ﷻ، وإلى الإيمان بوحدانيّته وربوبيّته المُطلقة.

وأما القلب، فوظيفته أن يسير من وراء هدي العقل، فيحبّ الخير الذي أثبت العقل أنه خير، ويكره الشرّ الذي أثبت العقل أنه شر، ويجعل ملاك ذلك كله في سبيل مرضاة الله ﷻ واتّباع شرعه.

ولا بدّ لعمارة الكون وتحقيق النظام فيه من عمل كلّ من هذين الجهازين، فلولا العقل لامتزجت نزواتُ النفس وأهواؤها بخفقات القلب وعواطفه، وتلاقى السّفل والعلو على إيقاد شرّ مستطير من شأنه أن يفسد كل شيء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (المؤمنون: ٧١). ولولا القلبُ، لما وجد الخير إلاّ في دنيا الوهم والخيال، ولظلّ بنيان الفضائل والمُثل العليا مجرّد رسوم وخطوطٍ على الورق، أو كلماتٍ وجملٍ حلوة على الشّفاه.

فالعقل إذن هو القدرة الكاشفة والمخطّطة، والقلب هو القوّة الدافعة والمحركة. ولا بدّ في كلّ عملٍ أو بناء من التّخطيط المنظّم له أولاً، ثم الأداة المنفذّة له ثانياً. ونظراً إلى أن الإسلام هو جامع الفضائل كلّها، فقد كان لا بدّ للقيام بعمله هذا من الاعتماد على كلا هذين الجهازين العظيمين. فمن أجل ذلك جاء الإسلام يخاطب العقل والقلب معاً: يخاطب العقل ليدرك ويتدبّر، ويخاطب القلب ليحبّ ويتأثر. وإنك لتجد آيات الكتاب المبين تتّجه إلى تحريك نياط القلب في الوقت الذي تتّجه فيه إلى إيقاظ مدارك العقل، وذلك لينهض كلٌّ بعمله، وليُسهم كلٌّ منهما في تحقيق إنسانيّة الإنسان، ثمّ في إقامته على صعيدٍ من العبوديّة التّامة لله ﷻ.

وإنك لتجد ذلك أيضاً في أحاديث رسول الله ﷺ. فقد كان يأبى عليه الصلاة والسلام دائماً إلاّ أن يقرن الإيمان العقلي بالمحبة القلبية. ألم تسمعه يقول في الحديث المتفق عليه: «لا يؤمنُ أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ماله وولده والناس أجمعين». وفي الحديث الآخر المتفق عليه أيضاً: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسُولهُ أحبّ إليه ممّا سواهما. وأن يحبّ المرءَ لا يحبّه إلاّ لله، وأن يكره أن يعودَ في الكفرِ، بعدَ أن أنقذهُ اللهُ منه، كما يكره أن يُقذفَ في النار».

### حقيقة الإيمان

ثمّ إنك تجد هذا المعنى أيضاً ممثّلاً فيما اتّفق عليه جمهور علماء المسلمين من أنّ الإيمان يزيد وينقص، وأنّ المسلم مطالبٌ

بالعمل على تقوية إيمانه وزيادته. وبدهيّ أن مجال هذه الزّيادة لا يمكن أن يكون العقل؛ ذلك لأن العقل إذا ارتقى في إدراك الشيء إلى درجة التصديق والإذعان، فقد وصل إلى النهاية التي لا يمكن أن يتجاوزها، إذ الإدراك للشيء لا يعدو أن يكون تصوراً أو تصديقاً، والتصديق نهاية عقلية عليا لا تقبل التفاوت والتشكيك. لا جرم إذن أن التصديق العقلي غير قابلٍ لأي زيادة أو نقصان؛ ولكن مجال هذه الزيادة إنما هو القلب. ففي القلب سُلّمٌ من العواطف لا تكاد تتناهى درجاته، وفيه وَقود هائل من الأشواق العارمة لا يقوى على وصفه أيّ قلم أو بيان. ففي هذه البوتقة ينضج الإيمان ويترعرع، وفيه تتوالد معجزات الإيمان التي طالما سمعنا بها قديماً وأجدبت منها حياتُنا حديثاً.

وانظر إلى البيان الإلهي، كيف يصوّر هذا المجال القلبي لتقوية الإيمان وزيادته، وتأمّل في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات: ٧) وأنت خبيرٌ أنّ كلمتي: «حبّبَ» و«زيّنَ» إنما يعرفهما قاموس القلوب، فهما يأتيان من وراءِ العقل وإذعانه.

### حقيقة المحبّة

ثمّ إن هذه المحبّة ليس معناها الحقيقي الاتباع والسّلوك العملي، كما قد يتصوّر بعض الناس، بل هي مستعملة في معناها الحقيقي نفسه، فليس الاتباع إلاّ أثراً من آثارها. وكيف تكون محبّة الله ورسوله هي الاتباع العملي؟! إنّ الاتباع نفسه يحتاج من وراءِ اليقين العقلي إلى محبّة قلبية دافعة. ومن البداهة بمكان أن شيئاً من صور التّضحيات الرّائعة التي قدّمها الصّحابة بالنفس أو المال لم يكن المحبّة نفسها، وإنما كان أثراً من آثار المحبّة العارمة التي فاضت بها قلوبهم، وإلاّ كان مجرد التصديق بشيءٍ ما هو وحده سرّ التّضحية في سبيله، وإذن لكان من اللاّزم العقلي أن يتساوى المسلمون كلّهم في صفة البذل والتّضحية والفداء. ومَن الذي يقول هذا؟ ومَن الذي زعم أن المسائل العقلانية وحدها من شأنها أن تؤثر في العواطف والقلوب؟ وهل سمع أحدٌ من الناس أن رجلاً ضحّى بحياته إيماناً منه بقاعدةٍ رياضيّةٍ أو مسألة من مسائل الجبر؟!

### الفضيلة والرذيلة

وكم كان «جان جاك روسو» على حقّ يوم أخذ يسخر ممّن يظنّ أنّ الإيمان المجرّد بالفضيلة يُعتبر انتصاراً لها وتحقيقاً لمبادئها. إنّه يقول: «كم قيل وأُعيد القول عن الرّغبة في إقامة الفضيلة على العقل وحده، ويا له من أساسٍ متين. أيّ أساس هذا؟! إنّ الفضيلة كما يقولون هي النظام، ولكن هل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلّب على مسرتي الخاصّة؟ إن هذا المبدأ المزعوم ليس إلاّ لعباً بالألفاظ، فالرذيلة هي حبّ النظام بشكل مختلف».

وانظر، فلقد أدركت أمريكا يوماً ما، ما في الخمر من الأضرار الجسيمة المختلفة، وآمنتْ بذلك إيماناً عقلانياً قائماً على مختلف الأدلة التجريبية والعلمية القاطعة، وأقدمت الحكومة الأمريكية بناءً على ذلك على إصدار قانون بتحريم الخمر... ولكن ما الذي تمّ بعد ذلك؟ لم تمض فترةٌ حتى أخذت رؤوس أولئك المقننين أنفسهم تتمايل من ألم الحرمان.. ثم ما هو إلاّ أن عادوا فنكصوا على أعقابهم، ومزّقوا القانون الذي كانوا قد أصدروه، وراحوا يعكفون على أقداحهم يترعونها من جديد.. أما في المدينة المنورة، وقبل أربعة عشر قرناً، حيث جماعة من الأمّيّين قامت حياتهم منذ أمد طويل على الخمر والشمس والماء والهواء، يقتاتون دنان الخمر كما يقتات الناس زكائب الحنطة، فقد وقعت المعجزة هناك بسر آية واحدة لم تزد على بضع كلمات.

ما كاد أولئك المؤمنون يسمعونها، ويسمعون قول ربهم ﷻ في ختامها: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١) حتى أريقت الدنان، وحُطمت الأقداح، وتعالت الصّيحات: «انتهَينا يا رب!». وفي ساعة واحدة تحوّلت الخمر من عنصر من عناصر الحياة -كانت ضرورتها من ضرورة الشمس والماء والهواء- إلى رجسٍ مستقذرٍ شنيع. وفي ساعة واحدة نُسخت عادة متمكّنة أصيلة، كأن لم تكن بالأمس، وكأن لم تكن لها جذور بعيدة راسخة.

فما الفرق بين أمريكا التي آمنتْ عن تجربة ودراية وعلم، وبين أصحاب رسول الله ﷺ الذين استقبلوا الأمر تلقيّاً وآمنوا به غيباً؟!

هنالك يقين فكري أعزل لا تشايعه النفس ولا يؤيّده الهوى. وهنا شيءٌ وقَر في القلب بعد أن استقرّ في الفكر. والقلب سيد هذا الكيان الإنساني كلّه، يقوده كما يحب، وفي السبيل التي يريد.

ثم إن القلب كالمرآة، لا يمكن أن يخلو من صورة تظهر على صفحتها.. فإمّا أن تثبت فيه صور من عكر الدنيا وأهوائها،

وإمّا أن يشـــرق بالمحبّة الإلهية الصادقة، وإذا فاض القلب بعكر الشـهوات والأهواء، فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أيّ عملٍ من أعمال التضحية أو الفداء.

**المحبّة الإلهية**

فما هو السـبيل إلى تزكية القلب وغرس المحبّة الإلهيّة فيه حـتى يزداد بذلك الإيمان، وتتوفّر مقوّمـات التضحية والبذل والجهاد؟

والجواب: إن لك إلى ذلك سـبلاً كثـيرة. فمن أهمّ هذه السبل أن تخلو إلى نفسك بين كل فترةٍ وأخرى مدةً من الزمن، تتأمل فيها بنفسـك وحقيقتها ومنشـئها، ومدى حاجتها إلى عنايـة الله وتوفيقه، في كل لحظة من لحظات الحياة، وفي النعم المتنوعة الكثيرة التي يُكرمك الله بها في سائر أحوالك وتقلباتك؛ ثم في النـاس، ومدى ضعفهم أمام الخالق ﷻ، وعدم أي فائدة مـن وراءِ مدحهم أو قدحهم أو الاعتماد عليهم؛ ثم أن تتفكّر في مدى عظمة الخالق ﷻ، وفي مظاهر آلائه ورعايته المختلفة التي لا تُحصى، وكيف أسـبغ عليك رداء ستره، فحجز عن الناس عيوبك، وأبقاها سرّاً بينه وبينك، ثم أشاع فيهم مناقبك وفضائلك دون قصد منك إلى ذلك؛ ثم أن تُتبع ذلك بالإكثار من ذكره، وتسـبيحه بالقلب واللسـان، والإكثار من تلاوة القرآن.

ومن أهم هذه السـبل أيضاً أن تُكثر من التأمل في سـيرة المصطفـى ﷺ، وأخلاقه، وطريقة حياته، ومعاملته للناس. فإن ذلك كله جزء من مظهر نبوته ﷺ، ومن شـأن التأمل في ذلك تقوية الإيمان وترسيخه في القلب.

ثم إن القلب من شأنه أن يخفق بحبّ الفضائل، والمُثل العليا. ومهمـا بحثتَ فإنك لن تجد الفضيلة والمثل العليا ومظاهر الرّقّة والجمال النفسـي والخلقي مجتمعةً كلّهـا في كيان واحد، إلاّ كيان أفضل المخلوقات محمـد ﷺ. فلا غرو أن يكون مهوى أفئدة المفكّرين والمتأملين، وقدوة جميع العقلاء المنصفين.

ومن أهم هذه السـبل أيضاً، الإكثار مـن العبادات عامّة والصلوات خاصة، والاستقامة عليها في خشيةٍ وحضور؛ فذلك هو الغذاء الـذي يُبقي على العقيدة وينمّيها، ويقوي جذورها في النفس والقلب. ولا والله لن تتسـاقط الآفات المختلفة التي تتعلق بالنّفس، ولن يحيا القلب بنور المحبّة والعرفان إلاّ بعد أن يزداد التعبّد والتبتّل في حياة المسلم، حتى يمتدّ أثرهما إلى النفس والقلب فيهزهما هزّاً، ويدفعهما مدّاً وجزراً، بين طرفي الخوف والرّجاء؛ فعند ذلك تتسـاقط تلك الآفـات العالقة بالنفس، وتتبدّد تلك الغاشية العكرة الممتدّة على صفحة القلب.

فإذا سـار المسلم في هذا السبيل، وتهيأ له القيام بهذه المهام، نبتت له من ذلك في قلبه محبةٌ إلهية عارمة، تجعله لا يخشـى أي عظيم، ويحتقر كل مغرية من المغريات، ويسـتهين بكلّ إيذاءٍ وعذاب، ويستعلي فوق كلّ إذلال أو استهزاء. ولعمري تلك هي العدة الكبرى التي جهّـز الله بها حبيبه محمداً عليه الصلاة والسلام، للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية، وهي العدّة التي ينبغي أن يتسلّح بها من بعده كلّ مسلم.

أريد أن أضع يدك بعد هذا الذي ذكرت، على مكمن الدّاء العُضال في حياتنا الإسلامية اليوم:

**الداء العضال**

إنّ داءنا المستحكم العضال، أننا مسلمون بالفكر والعقل، لا بالحبّ والقلب، أي إننا نمارس إسلاماً عقلانياً مجرداً بعيداً عن جواذب القلب ومؤثراته. ومثل هذا النوع من الحياة الإسلامية قد يُثمر ثروةً فكرية عظيمة، أو مكتبة إسـلامية واسعة، ولكنه لن يُثمر أبداً السعادة الإسلامية المنشودة.

إنّ أقلّ تجسـيد لهذه الحقيقة التي أقولها، أنك قد تجتمع مثلاً بجماعة من المسـلمين لهم مركز الصّدارة في الفكر والقيـادة الإسـلامية في المكان الذي يوجدون فيه، ويبدأ الحديث بينهم عن الإسـلام، وكيفيّة الدّعوة إليه، والنهوض بـه، وواجب المسـلمين في هذا العصر؛ ويغوصون في هذا الحديث في نشاط ولـذّة وحماس، ويتعالى صوت مؤذن على مقربة منهم يؤذن للصّلاة، والحديث لا يزال موصـولاً! وينتهي صوت الأذان، ويذوب في ضوضاءِ الحديث وصخبه!

ويمتد وقت طويل بعد ذلك والقوم مشغولون عن الاستجابة للأذان، والقيام إلى الصلاة، بالحديث عن الإسـلام والاهتمام بشأنه.. ويوشـك وقت الصلاة أن يخرج والقوم لا يزالون في شـغلهم وحديثهم. وأخيراً يقترح أحدهم استراحة دقائق ليقوموا إلى الصلاة.. وتبدأ صلاة سـريعة، قد لا تزيد على ركعات الفرض وحده، وتتأمل في مظهر صلاتهم، فلا تشـك أنّ كل واحـدٍ منهم منصرف بتفكيره إلى الحديث الذي قاموا لتوّهم عنه!

وما هو إلاّ أن يسـلّموا يمنةً ويسـرة، حتى يلتفتوا، بعضهم

إلى بعض مرةً أخرى وقد تذكّر هذا في الصّلاة ما كان قد نسيه أثناء الحديث، وقام في ذهن الآخر إشكال تصوّره عند قراءة الفاتحة.. ويَعُود الحديث بينهم عن الإسلام ومشكلاته، وما يتعلق به، وقد نسوا أن من وراءِ الصلاة التي فرغوا منها تسبيحاً وذكراً ودعاءً، وأنّ لها تتمّة من الرّواتب والنّوافل، وأن كل هذا الذي يخوضون فيه من الحديث إنما هو وسيلة إلى هذه الغاية العظيمة! وهكذا دواليك.. وقس على هذه الصورة غيرها من أشباهها.

غير أن الذي هو أهم من هذه الصورة نفسها، أن الكثيرين من المسلمين اليوم يدافعون عنها، ويتفلسفون في الدعوة إليها، ويقتنعون ويُقنعون أن الإسلام ليس إلاّ هذا المظهر الحركي الذي ينطبع شكله في البحوث الفكرية، والمناقشات النظريّة، والتنظيمات الشكلية؛ ويظلّون يقلّلون من أهمية العبادة، والتبتّل والأذكار، ويوهمون أنها بضاعة العامة والجهال الذين لا شغل لديهم حيث يملؤون بها فراغ وقتهم.

وإني لأذكر حفلاً حاشداً في إحدى بلادنا العربية، كنتُ أحد الحاضرين فيه، وأذكر أن أحد المفكرين من العلماء الفضلاء خطب في ذلك الحفل، فكان مما قال: «إن مشكلة كثير من المسلمين اليوم ما يحسبونه من أن الإسلام هو أن يُكثر الإنسان من الصلاة، أو أن يُكثر من التعبد.. مع أن الإسلام هو العمل والبناء».

ولقد أخذتُ ألتفتُ إذ ذاك عن يميني ويساري أنظر في وجوه الحاضرين، ثم رحتُ أتأمل في نفسي طبيعة أهل تلك المدينة كلّها، فما هدتني عيناي ولا أرشدني خاطري إلى أنّ ثمة أقواماً انقطعوا عن الحياة الدنيا في كهوف قاصية للعبادة والصلاة.. وتأمّلت، فوجدتُ أنّ أعظم متعبّد فيهم هو ذاك الذي يحافظ على فرضه يؤدّيه جماعة في وقته، وقد يُتبعه بركعات خفيفة من نوافله المتمّمة.. فما وجه الحاجة إلى هذا الكلام، وما الضرورة الدّاعية إلى التّكريه بالصلاة أو الدّعوة إلى التخفيف من العبادات، وما في الحاضرين كلّهم والبلدة بأسرها إلاّ مقصّر عن الحدّ الأدنى في ذلك؟

والعجيب أن ندعو بعد ذلك إلى العمل والبناء والتضحية. فما الذي ينهض بالمسلمين إلى القيام بذلك كلّه، وهم مقيّدون بأثقال وأغلالٍ من الشهوات والأهواء والمطامع الدنيوية المختلفة! ما الذي يحملني على استدبار شهواتي وأهوائي، وإنّ قلبي ليخفق بحبّها والتعلّق بها ؟

إن الأمر يحتاج ولا ريب إلى مساعد ومعين، فأين هو المساعد والمعين وما هو؟ لقد أجاب البيان الإلهي على هذا، ووضع بين أيدينا المساعد والمعين، وذلك في قوله جل جلاله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥) وطالما وضع الباري ﷻ هذا الدّواء المساعد بين يدي حبيبه المصطفى ﷺ، كلّما حزبه أمر، أو أطبقت عليه شدة، أو استيقظت في نفسه بعض المشاعر البشرية؛ تأمل مثلاً قوله تعالى لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (ق: ٣٩-٤٠).

وأمعن النظر في هذه الآيات الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ۞ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٤-٢٦)

ومعاذ الله أن يكون أسلافنا من المسلمين الذين شادوا صرح هذا الدّين ببطولاتهم وجهادهم وتضحياتهم، قد نجحوا في شيء من ذلك إلاّ أن أزاحوا عن أنفسهم أثقال الشهوات، وأغلالَ الأهواء، بسلاح من العبادة والتبتّل، والوقوف على الأقدام بين يدي ربهم السّاعات الطّوال، في جُنح الليل، يسكبون دمعاً ساخناً ويناجونه في دعاء خاشع، ويذكرونه بقلبٍ واجف.

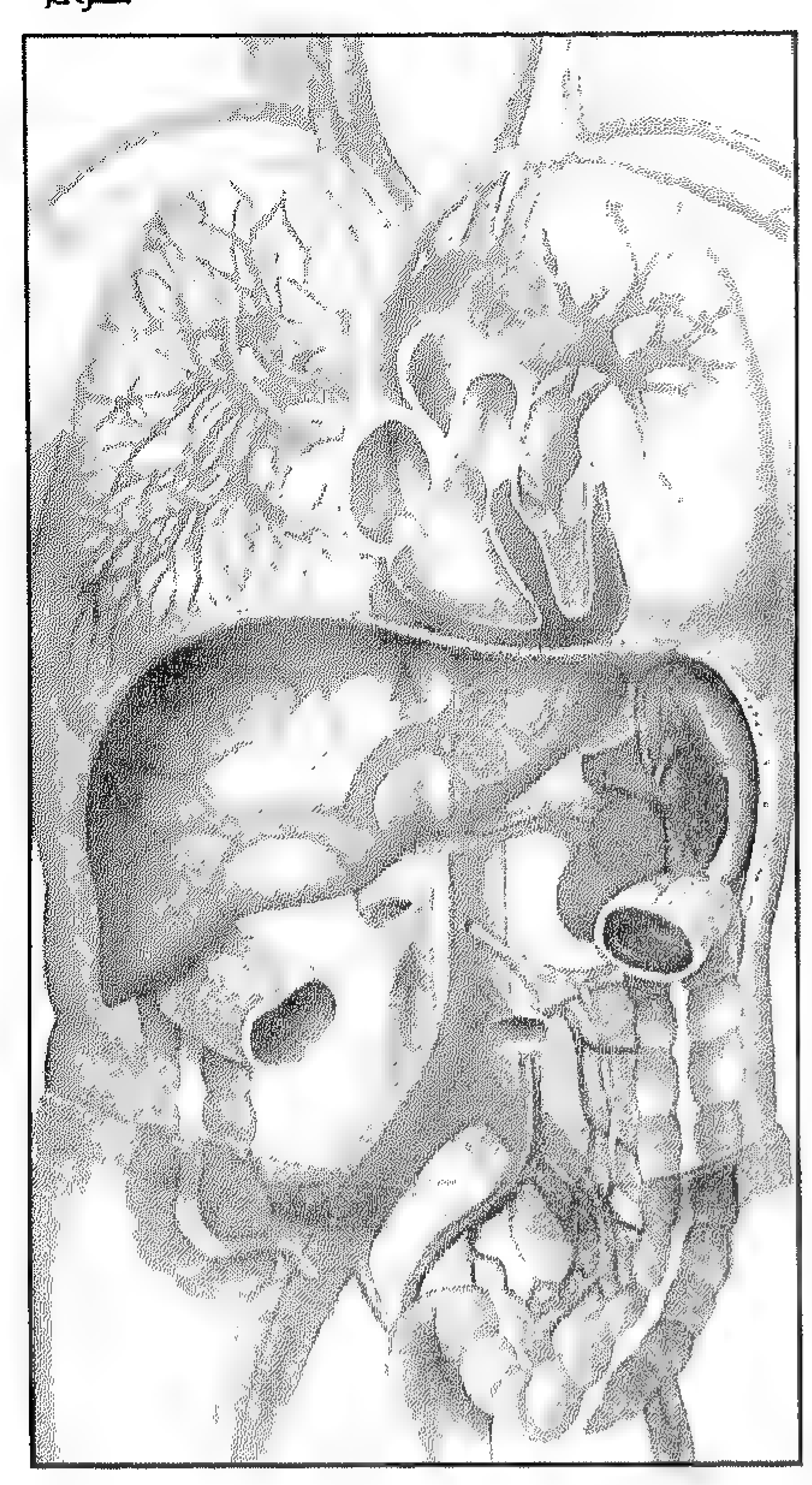
ولا والله، لن يستطيع مسلمو اليوم أن يسيروا وراء خُطى أجدادهم بالأمس، إلاّ إذا غمرت اللّوعة قلوبهم، وتلظّت الأشواق الإلهية بين جوانحهم، وملؤوا أكوابهم بتلك الخمرة العُلويّة التي تنشلهم من قتام هذه الشهوات والأهواء، وتساموا بوجدانهم إلى مستوى الحقيقة العليا.

إنّ لوعة الحبّ وحدها هي السّوط السائق، والتيّار المحرّك. والمحبّ هو وحده الذي يبذل الجهد شوقاً إلى المحبوب؛ فيسهل بذلك عليه الصّعب، ويقرب له البعيد، وتفنى لديه القُوى، وتذوب فيه الحياة، ولا يرى أنّه قد أوفى بعهد المحبة، أو قام بواجب شكر النّعمة.

ويوم يعمر هذا الحبُّ قلوب المسلمين اليوم، يتكامل البنيان كلّه، ويتوفّر العمل جميعه، وتتجلّى معجزات التضحية والبذل والجهاد، وتتنزل معجزات النصر والعزّة والتّأييد. ■

---

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق – سوريا.



# التوازن العجيب في جسم الإنسان

أ.د. عمر عارف آغا أوغلي*



نُدْرك من البَيان المُعْجز للقرآن الكريم الذي يُعلن أنه خلق كل الأحياء من الماء، مدى أهمية الماء للحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠). وكذلك فإن ٦٠٪ من أجسامنا تقريباً ماءٌ. عندما نعلم أن كل الأحداث الحيوية والكيميائية والفسيولوجية التي في جسمنا تجري في وسط مائي، وعندما نرى تعطل وفساد ردود الأفعال في الخلايا ما لم يكن هناك ماء... إذا ما أدركنا ذلك، فهمنا حكمة البيان الإلهيّ؛ لو فرضنا أن الشخص البالغ يزن ٧٠ كيلو جراماً، فإن مجموع الماء الموجود في جسمه يبلغ ٤٢ لتراً تقريباً؛ منها ٢٨ لتراً داخل الخلايا، وأما الـ ١٤ لتراً فموجودة خارج الخلايا. إن جسم الإنسان البالغ يحتوي على ١٠٠ تريليون خلية تقريباً. وجميع هذه الخلايا محاطة من جميع جوانبها بوسط سائل، وأطراف كل هذه الخلايا التي تبدو وكأنها ملتصقة ببعضها البعض في الأنسجة مُحَاطة بسائل رقيق جدّاً. وإن محتويات هذه السوائل الداخلية هي نفسها في كل أطراف البدن. بمعنى أن كثافة المواد الموجودة داخل هذه السوائل من فتيامين وأوكسجين أو جليكوز أو غيرها من المواد هي الكثافة نفسها سواء أكانت هذه السوائل تحيط بخلايا الكبد أو خلايا المخ. وربما يخطر على البال في الوهلة الأولى أن سائل الدم والمخ والنخاع الشوكي، والسوائل الموجودة في فراغات الأمعاء والمعدة وإفرازات كيس الصفراء وغيرها تقوم بتغيير الوضع الداخلي لهذه السوائل؛ ولكن كل هذه السوائل الموجودة خارج الخلايا قد خُلِقت من أجل أداء وظائف ومهام معينة في الأعضاء التي ترتبط بها. لذا فإن تركيب الوسط الموجود داخل الخلايا متجانس ويمتلك الخاصية نفسها. وينطبق هذا على كل الخلايا. ومن أجل استمرار حياة الخلايا في هذا الوسط، توجد كميات معينة من الأوكسجين والمواد الغذائية والأيونات والفيتامينات والهرمونات.. الخ.

إن كثافة المواد الأخرى التي بداخل الماء الذي يُشكل المادة الأساسية للوسط الداخلي للسوائل (مثل الأملاح والجلوكوز) وثبات تلك الكثافة من ناحية الظروف الفيزيائية الموجودة في هذا الوسط أو استمرار وضع السكون، يُطلق عليه عملية الاتزان البدني، أي الاتزان بين عناصر الكائن الحي المختلفة. ولكن لا يمكن أن نقيس حال ذلك السكون بالأوضاع الثابتة والتي لا تتغير قط للموجودات الجامدة أي الجمادات. إن حالة السكون أو الاستقرار الموجودة في الأحياء هو سكون أو استقرار ديناميكي ووضع يتغير داخل حدود معيَّنة في كل آن. إن أي نقص أو زيادة في المقادير الصغيرة التي تدور حول المعدَّل الذي يمكن أن نُسميه عاديًا أو في المتوسط لا بد من استمراره في حالة مثالية بالمراقبة المستمرة في كل آن للمعدَّلات الواجب مراعاتها واتخاذها كأساس. ومن هذا المنطلق فإن هذا الاتزان البَدَني مهم جدّاً، لأن بقاءنا أحياءً مرتبط باستمرار هذا التوازن حول المعدَّلات الثابتة المحدَّدَة. وعند اختلال التوازن الديناميكي الحساس هذا في الوسط الداخلي لأسباب شتى، وإذا ما زادت كثافة المادة الموجودة في المحيط الداخلي أيضاً، فإن ذلك يُسَبِّب المرض. فمثلاً؛ عند زيادة كثافة الأوكسجين الذي يُعد غاز الحياة، عن الحد المعتاد، فإن الخلايا تموت بالتسمم الأوكسجيني. أما على العكس من ذلك، لو انخفض عن المقدار اللازم توافره، فلا يمكن إنتاج طاقة من الأغذية، وتموت الخلايا أيضاً. ومن ثم فإن اختلال التوازن البدني، يمكن أن يكون سبباً

في ظهور أمراض تنتهي بالموت.

إن كل الخلايا والأنسجة والأعضاء والأنظمة، تعمل من أجل استمرارية التوازن والاتزان بين العناصر المختلفة للكائن الحي. وليس هناك أي عضو قط، يدور في فلك العمل الطبيعي، يمكن أن يثور على الأسس والقواعد التابع لها منذ خلقه، ويسعى إلى إفساد التوازن والاتزان البدني. ولو أوكل إلينا ضبط عيار الوسط الداخلي لخلايانا لتحولت الحياة إلى شيء لا يطاق، حيث يتوجب علينا احتساب كل ما نأكله أو نشربه من مواد حتى أصغر وأدقّ مقاديرها، وإرسال كل ذرة منها إلى مكانها المناسب، ولو حدث أي خطأ -مهما كان صغيراً في التوزيع أو أخطاء مليجرامية في المقادير- لسوف يكون ذلك سبباً لإنهاء حياتنا. ولكن دون أن ندري تحفظ هذه التوازنات وتُسَيَّر بدون أي تعويق في كل الخلايا والأنسجة.

إن الأغذية الطبيعية تساعد على استمرار التوازن البدني، بينما التي فقدت خواصها الطبيعية بالتصفية أو بتعريضها لعمليات مختلفة أو الكحوليات أو السجائر أو الإفراط في الأكل، هذه كلها يفسد التوازن بين عناصر الكائن الحي. وينبغي تشغيل ثلاث آليات بشكل جيد للحفاظ على هذا التوازن.

### ١- التجانس الداخلي

إن تأمين التجانس في الوسط الداخلي أمر واجب. فمثلاً عندما نطبخ طبقاً من الشوربة فما لم يتم التقليب فلن يكون هناك تجانس؛ فيحترق أسفلها ويتجمع الماء أعلاها، والدهن في ناحية، والدقيق في ناحية مكوناً تكوُّرات من العجين. مثل هذا تماماً، فمن أجل تأمين التجانس داخل الوسط الداخلي للخلية يلزم استمرارية التقليب. ومن أجل تشغيل هذا التقليب واستمراره فقد تم تكليف نظام القلب والشرايين بذلك. وإن هناك أخذاً وعطاء مستمراً فيما بين السائل النسيجي الموجود فيما بين الخلايا والشعيرات الشريانية التي هي وسيلة لحمل كل أنواع الأغذية والمياه والأملاح المعدنية والأوكسجين والسائل الدموي. إن هذا الأخذ والعطاء التبادلي في الشعيرات الشريانية يتم بسرعة مذهلة، حتى إن ذرّات المياه خلال فترة مرورها من الشعيرات الشريانية تدخل وتخرج ثمانين مرة إلى الخلايا الموجودة في أي نسيج.

### ٢- تخزين المواد الغذائية الزائدة

إن الأوكسجين والمواد الغذائية الموجودة في الوسط الخارجي للخلية، تُستخدم بصفة مستمرة من قِبل الخلايا. وفي النهاية لكي لا يحدث نقص أو تقليل في مقدار هذه المواد، فيجب تأمين الأوكسجين والغذاء بصفة مستمرة للوسط السائل خارج الخلية. ولمّا كانت كل الخلايا تحت السيطرة المستمرة لدوام هذا التشغيل، ففي حالة حدوث أي خلل أو نقص، فيتم أولاً إعلام النظام وإخباره. وفيما بعد تصدر الأوامر إلى الأعضاء المختصة مثل المعدة والأمعاء والرئة للتحرك الفوري، ويتم تأمين القيام بعملية دفع الغذاء والأوكسجين اللازم. ولعدم الإخلال أو إفساد الاتزان بين العناصر المختلفة في الكائن الحي يتم إعطاء الأوكسجين اللازم للوسط الخارجي للخلية بالتشغيل المستمر للرئتين، وتُكلَّف الأمعاء أيضاً بتقديم المادة الغذائية للوسط الداخلي. ومن هذا المنطلق فقد تم تحميل الكبد بمهام ومسؤوليات مهمة جداً. ففي خلال فترات الشبَع يتم تخزين المواد الغذائية الزائدة الكمية في الكبد، وهكذا لا يُسمح بإخلال الاتزان البدني، وتُرفع المواد الغذائية في الدم إلى حالتها القصوى. بالإضافة إلى ذلك فإن المواد الغذائية التي تم تخزينها في الكبد عند الشبَع تُقدَّم إلى الدم كنوع من السيطرة في حالات الجوع، ولا يُسمح قط بانخفاضه إلى ما دون المقدار المحدد.

### ٣- طرح الفضلات

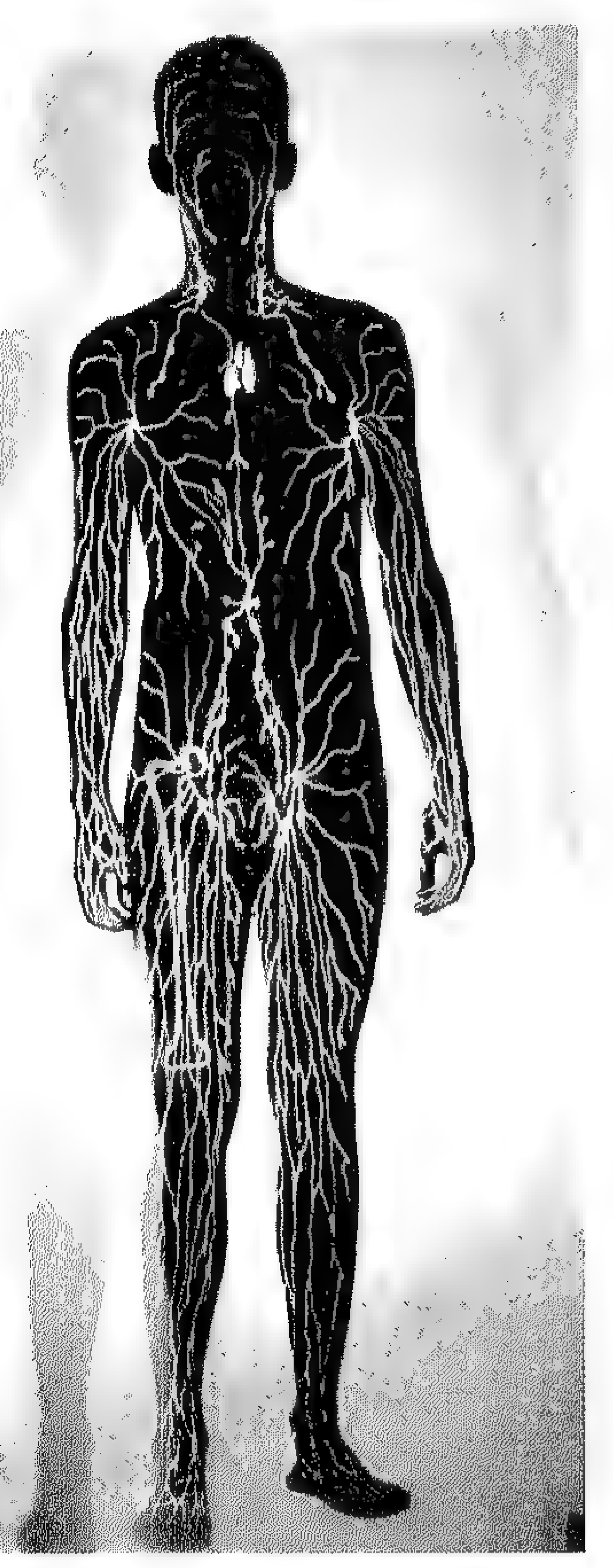
إن من أهم وظائف الخلايا ومسؤولياتها، -بعد أن يتم استنزاف المواد الغذائية- هو إرسال ثاني أكسيد الكربون والمواد الغذائية الزائدة الأخرى إلى الوسط السائل خارج الخلية. فكما أننا لا نستطيع استخدام المدفئة التي نُشْعِلها بالخشب أو الفحم في منازلنا إذا لم نتخلص من أتربتها، فإننا كذلك، إذا لم

نتخلص من المواد الزائدة الموجودة في خلايانا، فإنها ستتراكم، وتكون سبباً رئيساً في الإخلال بالاتزان بين العناصر المختلفة في أبداننا. فمثلاً لو تراكم البول الذي هو إخراج نيتروجيني، لظهر الخلل الذي يُسمّى «مرض تَبَوُّلن الدم». والرئتان في الكائنات الحيَّة تقومان بوظائف إخراج نفس الغاز النيتروجيني بصفة مستمرة، ذلك الغاز الذي يخرجه جسمنا بشكل يُشبه إخراج ثاني أكسيد الكربون من مَدْخنة مدفئتنا، وهكذا.. فبينما يتم إخراج قسم كبير من المواد الزائدة من الجسم بواسطة الكلَى، فإن القسم الأقل يتم إخراجه إلى خارج الجسم عن طريق المصارين بعد أن تمر ببعض العمليات التي تقوم بها الكبد.

**نظام التغذية المرتجعة السالبة**

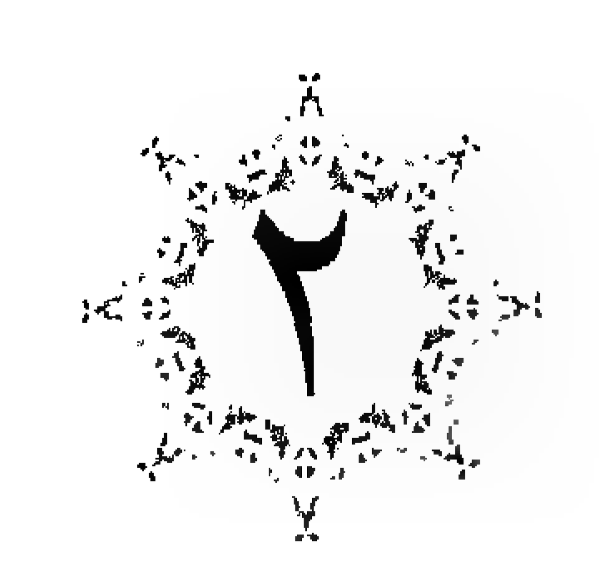
من أجل الحفاظ على الاتزان بين عناصر الكائن الحي المختلفة، فإن هناك آلية مهمة جدّاً قد استقرت في جسمنا، ألا وهي نظام التغذية المرتجعة السالبة. هذه الآلية يمكن تَشْبيهها بعمل الترموستات في أجهزة التكييف؛ فعند انخفاض حرارة غُرفتنا عن المستوى المطلوب، فإن النظام الآلي يُعيد تشغيل المكيف ويبدأ في تدفئة غرفتنا من جديد. وعلى نفس المنوال لو حدث أي خلل في عيار مقدار أي مادة موجودة في الوسط الداخلي لخلايانا، فإنه يتم تصحيح الخلل بنظام خارق للعادة. فإذا تم تجاوز الحد الأعلى لأي مادة في الوسط الداخلي لجسمنا، فعَلى الفور يتم تنبيه نظام آخر يعمل في محتوى عكسي، ويتم البدء في التشغيل آلياً بهدف إزالة هذا المقدار الزائد. فلو زاد السكّر في البيئة الخارجية للخلية، فإن هذه الزيادة في السكر، تكون هي الوسيلة لتحفيز غدة البنكرياس لإفراز هرمون الإنسولين اللازم، وذلك للحيلولة دون ارتفاع السكر بزيادة دخول السكر للخلايا. في هذا الوضع يظهر الامتلاء عند الشبع، والامتلاء يزيد إفراز الإنسولين. لهذا السبب يُطلق على الإنسولين «هرمون الشبَع». وإذا لم يعمل هذا النظام، عند ارتفاع السكر، ولم يُفْرَز الإنسولين، يرتفع السكر، ويظهر مرض السكري. أما في حالة الجوع فإن سكر الدم ينخفض، ويكون ذلك سبباً في إفراز هرمون «الجلوكاجون». وبهذا الهرمون تتم الحيلولة دون انخفاض السكر. وذلك بتأمين تقديم السكر إلى الوسط الخارجي للخلية من مخازن السكر، وفي مقدمتها الكبد. وفي الوسط السائل خارج الخلية، فإن السكر الزائد كما أنه يفتح الطريق أمام الوفاة كنتيجة مباشرة لإغماءة السكر فإن انخفاض السكر، يفتح الطريق أمام إغماءة السكر المنخفض، ويمكن أن يكون سبباً لموت المريض. كما هو واضح، فإن آلية التغذية المرتجعة السالبة تلعب دوراً مهما في تأمين الاتزان البدني بين عناصر الكائن الحي.

من أجل حماية الاتزان البدني، أي الموازنة الداخلية الحساسة في البدن الإنساني فهناك حاجة ماسة لحماية تنظيم وتثبيت الغازات الموجودة في الجو لتتناسب معنا. فمثلاً، لكي نُحتفظ بنسبة الأوكسجين الموجود في الوسط الداخلي بشكل ثابت، يجب أيضاً الحفاظ على نسبة الأوكسجين الموجود في المناخ ثابتة أيضاً. هذا النظام الحساس يُشير إلى سلطة واسعة جدّاً. سلطة حاكمة ومسيطرة بحيث تستطيع أن تتحكم في كل الذرات والجزيئات الموجودة في جسم الإنسان لتأمين الاتزان البدني بين كل عناصر الكائن الحي من ناحية، ومن ناحية أخرى تُؤمن السيطرة على التفاعلات الذرية الجارية في الشمس والتي توفر توهجها واشتعالها ملايين الأعوام. إذن فإن الخالق ﷻ الذي خلق كل هذه الموجودات، لا بد وأنه حاكم ومسيطر على الشمس وعلى الكائنات الحيَّة بل وعلى الخلايا الموجودة في تلك الكائنات من ناحية، ومن ناحية أخرى حاكم ومسيطر على الجزيئات والذرات الكائنة داخل تلك الخلايا أيضاً. ولا يمكن القبول أبدًا أن تكون هذه العمليات الخارقة والحساسة والمتوازنة تحدث مصادفة أو بشكل تلقائي.



إن المصادفات يمكن أن تتولد عنها بالكاد مصادمات ومفاسد واختلالات. ومن أجل تأمين هذه الموازنة الحساسة فيشترط أن تكون كل الجزيئات والذرات التي تدور في المحيط الداخلي تحت أمر من يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.




# فصل المقال
## فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال
## عند الحكيم بديع الزمان

أ.د. طه عبد الرحمن *

ولنعطف الآن على الضرب الثاني من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التصاحبي، فنبين كيف مارس عليه بديع الزمان هذا النقد المثلّث، مع العلم بأن هذا الضرب يقوم على مبادئ ثلاثة هي: «مبدأ الاندهاش» و«مبدأ الاستشكال» و«مبدأ الاستدلال».

### ٢,١,٢. نقد التصاحب بين الفلسفة والحكمة

أ- **النقد المنطقي:** فبالنسبة لمبدإ الاندهاش الفلسفي، الصواب أن الفلسفة لا تصدر عن الشعور بالعجيب الخارق، وإنما عن الشعور بالغريب الشاذ؛[١] وشتان بين الشعورين، فالأول مداره على كمال الخلقة الذي في الأشياء، بينما مدار الثاني على نقص الخلقة الذي فيها؛ والدليل على ذلك أن الفلسفة لا تتأمل المألوفات، بل تحسب كل مألوف معلوما، بل إن أكثر معلوماتها مبنية على المألوف والعادي، وليس على المعجز والخارق.[٢]

وأما عن مبدإ الاستشكال الفلسفي، فالصواب أنه غير مضبوط في مقاصده المتعلقة بالكائنات، فيقع في الخبط والانتشار في كل اتجاه؛ كما أنه غير مشفوع بالجواب المطلوب، فيقع صاحبه في الحيرة البالغة، بل في العذاب الشديد.[٣]

وأما عن مبدإ الاستدلال الفلسفي، فالصواب أنه سلسلة من القضايا التي يتهددها الوهم على الدوام؛ فلو فرضنا أننا نريد أن ندفع عنها هذا التهديد، فحينئذ يلزم أن نستدل على كل قضية من هذه القضايا بسلسلة أخرى من القضايا يتهددها بدورها الوهم، وهكذا دواليك؛ فلا نكاد ندفع الوهم عن سلسلة حتى نجلبه إلى سلاسل من دونها بلا انقطاع.[٤]

ب- **النقد الأخلاقي:** لما كان الاندهاش الفلسفي في أصله استغرابا، ولم يكن أبدا استعجابا، أوقع المتفلسف في محذورَين:

أحدهما، **سد طريق الاعتبار:** إذا كانت الفلسفة لا تتعجب من العاديات والمألوفات، فإنها لا تمكّن صاحبها من استخراج العبر والعظات منها.

والثاني، **فتح طريق النكران:** إذا كانت الفلسفة تُلقي بغطاء الإلفة على الأشياء، فإنها تحول دون معرفة القدرة الإلهية والإقرار بأفضالها غير المتناهية.

ولما كان الاستشكال الفلسفي تساؤلا غير منضبط، أفضى إلى أمرين كلاهما حرمان هالك:

أحدهما، **فقدان سر التوحيد:** إن كثرة الأسئلة بدون مقاصد موجّهة ولا أجوبة مُرْضية تدل على أن صاحبها محروم من سر التوحيد، إذ إنه لو كان متحققا بهذا السر، لدارت أسئلته على مقاصد محددة، وظفر بالأجوبة عليها ضمن هذه المقاصد التوحيدية.[٥]

والثاني، **فقدان الشعور بالسعادة:** إذا لم يجد المتفلسف أجوبة على أسئلته المتفرقة ولا استجابة لمطالبه المتباينة، فلا بد من أن يشقى شقاء عظيما.[٦]

ثم لما كان الاستدلال الفلسفي سلسلة مهددة بالوهم، أفضى إلى أمرين كلاهما شر بالغ:

أحدهما، **التعلق بالأسباب دون المسبّب:** تقتصر الفلسفة في استدلالاتها على الكائنات دون المكوّن سبحانه، أي باصطلاح بديع الزمان تأخذ بالنظر الاسميّ، لا الحرفي؛[٧] يلزم على ذلك أنها تُوقِع المشتغل بها في عبادة الأسباب.[٨]

والثاني، **التعلق بالذات دون غيرها**: كما ينظر المتفلسف من الكائنات إلى أسبابها الطبيعية، فكذلك ينظر إلى نفسه نفس النظر الاسمي؛[٩] يلزم من ذلك أنه يقع في عبادة النفس.[١٠]

جـ- **النقد الإشاري**: إن مَثَل الفيلسوف القائل بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمَثَل من يسلك طريقا على وجه الأرض في صحراء شاسعة، فتأتيه الأهوال من كل جانب بين غضب البحر وتهديد العاصفة وظلمة السماء، فتصيِّره أشلاء مبعثرة على حافة الطريق، وتكون منزلته في القرآن الحكيم منزلة «المغضوب عليهم».[١١]

وإذا قارنا بين هذا النقد الإشاري للتصاحب والنقد الإشاري السابق للتداخل، تبيَّن أن القائل بالتصاحب أسوأ حالا من القائل بالتداخل، ذلك أن في سلوك الأول لطريق فوق الأرض، أي طريق تحت السماء -التي هي رمز الوحي- وتحت الشمس -التي هي رمز النور-، إشارةً إلى أن تحديه لربوبية الحكيم يزيد درجات عن غرور الثاني؛ فهذا لا يسلك إلا طريقا تحت الأرض، لا يرى فيه شمسا ولا سماء؛ كما أن في إلقاء البحر أشلاء الأول على جانب الطريق إشارةً إلى أن عمله أشبه بعمل فرعون، فاستحق أن يلقى نفس المصير موتا واعتبارا،[١٢] بينما لا نظفر من الثاني إلا بشبح، فلا يكون عبرة للناس ببدنه، وإنما بآثاره وحدها.

من ثمَّ، يصبح الفيلسوف المشائي الكبير الذي لم يرد اسمه على لسان بديع الزمان إلا قليلا، وهو: ابن رشد، معدودا عنده في زمرة المغضوب عليهم،[١٣] إذ كان يقول بالتصاحب بين الفلسفة والحكمة ويعمل على مقتضاه، وهو عمَلٌ فَسق به فسوقا أشبه بتمرد اليهود؛[١٤] ولما كان بديع الزمان قد انخدع بدهائه هو الآخر -على حد تعبيره- واعتقد الصحة في رأيه، كاد أن يتعرض هو نفسه لغضب الله لولا أن الله تجلى عليه باسمه «الرحيم»، فهداه الصراط المستقيم.

وعلى هذا، فإن العمل بمبدإ تصاحب الفلسفة والحكمة يُنتج إنسانا غير بصير ولا معتبِر ولا معترف ولا سعيد ولا ناج.

وبعد أن أنهينا الكلام عن الجانب النقدي في الموقف الانقلابي الذي اتخذه بديع الزمان من العلاقة بين الفلسفة والحكمة، نمضي إلى بيان عناصر الجانب البنائي في هذا الموقف الجديد.

**٢,٢. انقلاب بديع الزمان والقول بالفصل بين الفلسفة والحكمة؛** يتمثل الجانب البنائي من هذا الانقلاب الفكري في كون بديع الزمان يستبعد كلا الجمعين المذكورين بين الفلسفة والحكمة -أي جمع التداخل وجمع التصاحب- ويأخذ **بضده**، أي يأخذ بفصل أو تفريق مخصوص بينهما، متوسلا في ذلك بآلية خطابية محددة.

**١,٢,٢. الفصل الاستتباعي بين الفلسفة والحكمة**: يستبعد بديع الزمان جمع التداخل الذي يُنزل الفلسفة والحكمة رتبةً واحدة ما لم تتعارضا، ويأخذ **بتفريق** -أو **فصل- في الرتبة** بينهما ولو لم تتعارضا، ممارسا **آلية القلب** على المبدأين اللذين يتقوَّم بهما هذا الجمع، أي «مبدإ التأسيس العقلي للنقل» و«مبدأ التوسل بالعقل في النقل»؛ ومقتضى القلب، كما هو معروف، تغيير الرتبة، فإن كان الشيء مقدَّما، صيَّره مؤخَّرا، وإن كان مؤخرا، صيَّره مقدما؛ وحينئذ، يصبح المبدآن اللذان ينبني عليهما هذا الفصل هما بالذات: «مبدأ التأسيس النقلي للعقل» و «مبدأ التوسل بالنقل في العقل»؛ وبيان ذلك كما يلي:

أ- **مبدأ تأسيس العقل على النقل**: يذهب بديع الزمان إلى أن العقل -أي العقل الدائر بين الناس- والنقلَ -أي النقل في معناه الأعم- كليهما يحتاج إلى التأسيس، ولا يمكن أن يأتي التأسيس من هذا العقل الناقص كما لا يمكن أن يأتي من النقل العام، بل لا بد من طريق ثالث لا يكون فيه نقصان العقل ولا عموم النقل، بل يجمع إلى العقل الأكمل النقل الأخص؛ وليس هذا الطريق الثالث إلا القرآن الحكيم، ففيه من أسباب كمال العقل ما يؤهله لتأسيس العقل الدائر بين الناس، وفيه من أسباب خصوصية النقل ما يؤهله لتأسيس النقل عامة.[١٥]

ب- **مبدأ التوسل بالنقل في العقل**: يذهب بديع الزمان إلى أن العقل -وتمثله الفلسفة البشرية خير تمثيل- لا يقدر على أن ينفع الناس وأن يحقق لهم السعادة حتى يتوسط بالنقل -ويمثله الوحي الإلهي أفضل تمثيل-؛ وبدون هذا التوسط، لا يخلو العقل من أسباب النفع والإسعاد فحسب، بل ينقلب بالضرر على الإنسان ويبلغ فيه هذا الضرر أقصاه،[١٦] لأنه لا مفر من أن يضل الطريق ويتعرض لغضب الله.

وبهذا، يصير النقل -ممثَّلا بحكمة القرآن- هو الأصلَ، والعقلُ -ممثَّلا بفلسفة البشر- هو الفرع متى ثبتت موافقته لما جاء به النقل؛ لذا، جاز أن نسمي التفريق -أو الفصل- في الدرجة بين الحكمة والفلسفة الذي قابل به بديع الزمان الوصل التداخلي بينهما باسم «**التفريق** - أو **الفصل** - **الاستتباعي**»، حيث

إن الفلسفة تصبح تابعة للحكمة وخادمة لها؛[17] وهذا بالذات ما يستفاد من تمييز بديع الزمان بين الفلسفة النافعة والفلسفة الضارة في رسالة موجهة إلى طلاب الفلسفة الحديثة[18] الذين أقبلوا على رسائل النور؛ فبصرف النظر عن الاعتبارات الظرفية التي قد تدعوه إلى مثل هذا التمييز كرغبته في استمالة هؤلاء الطلاب المتفلسفة وتشجيعهم على المضي في قراءة هذه الرسائل واتقاءِ شر الخصوم، فإنه يجعل الفلسفة النافعة خادمة لحكمة القرآن كما لو كانت متفرعة عليها، نظرا لأنها «تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد السبل للرقي الصناعي».[19]

ومن شأن العمل بهذا الفصل الاستتباعي أن يُخرج لنا إنسانا راسخ الإيمان قوي الحجة ناكرا لذاته غير متعلق بالظاهر ولا تائها عن الطريق، أو قل بإيجاز **إنسانا مَهديا**.

**٢,٢,٢. الفصل الاستبدالي بين الفلسفة والحكمة:** يستبعد بديع الزمان أيضا جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة، ويأخذ **بتفريق -أو فصل- في النوع** (أو الطبيعة) بينهما، ممارسا **لآلية الاستبدال** عليهما؛ ومقتضى الاستبدال هنا هو جعلِ الشيء بدلا من غيره، بحيث يصير البدل قائما بوظائف المُبدَل منه على أحسن وجه؛ وحينئذ، تصبح الحكمة عند بديع الزمان بديلا عن الفلسفة، ناهضة على أفضل وجه بالمبادئ الثلاثة التي تدعي الفلسفة الاختصاص بها، أي «مبدأ الاندهاش» و«مبدأ الاستشكال» و«مبدأ الاستدلال»؛ وتوضيح ذلك كما يلي:

أ- **مبدأ الاندهاش:** يرى بديع الزمان أن الصورة الأبلغ والأكمل لمبدإ الاندهاش تتحقق في حكمة القرآن المبين، وذلك من وجهين:

• أن القرآن يخرق ستار العادة المسدول على الأشياء في أنفسنا وفي الآفاق من حولنا، فيجعلنا نتعجب من الأسرار المودعة فيها ونكتشف ما تنطوي عليه من خوارق القدرة الإلهية وعجائبها العظيمة.

• أن القرآن كلام معجز، ومعلوم أنه لا صفة أبلغ من «الإعجاز» في إثارة الاندهاش، فما بالك إذا كان إعجازا من قبيل الإعجاز القرآني! فعندئذ، لا بد أن يبلغ اندهاش المرء نهايته.

وعلى هذا، فإذا كان التفلسف، كما قيل، يبدأ بالاندهاش، فإن الاندهاش الذي هو بداية الحكمة ليس فوقه اندهاش، حيث إنها تحظى به في تأمل إعجاز القرآن الداعي إلى منتهى الاندهاش، بما أنه هو مَجْلى اسم الحكيم من أسماء الله الحسنى؛ ومن هنا، ندرك لِمَ بدأ بديع الزمان مساره في الحكمة بالاشتغال ببيان إعجاز القرآن، عملا بالرؤية الصادقة التي رآها، وهي رؤية انفلاق الجبل المذكورة أعلاه، إذ جاءه فيها شخص عظيم بِأمر مخصوص، قائلا: «بيِّن إعجاز القرآن».[20]

ب- **مبدأ الاستشكال:** يرى بديع الزمان أن الصورة الأصح والأتم لمبدإ الاستشكال تتحقق هي الأخرى في حكمة القرآن، وذلك من وجهين هما:

• أن القرآن يحدد أفضل نطاق يمكن أن توضع فيه الأسئلة، ذلك أن السؤال لا يستقيم إلا إذا دار على مقصد مخصوص، والقرآن له مقاصد أصلية هي: «التوحيد» و«الوحي» و«الآخرة» و«الاستقامة» أو بتعبير بديع الزمان، «إثبات الصانع» و«النبوة» و«الحشر» و«العدالة»؛[21] فما من آية من آياته البينات إلا وتتعلق بمقصد واحد أو أكثر من هذه المقاصد الأربعة، بل إن الآية الواحدة، على قِصَرها، قد تشتمل عليها جميعها، نازلة بذلك منزلة القرآن كله؛ وأما ما جاء فيه من مقاصد أخرى تتصل بالكائنات وخصائصها، فهو تابع لهذه المقاصد الأربعة وخادم لها؛ وعلى هذا، ينبغي أن تدور أسئلة الحكيم على هذه المقاصد وحدها، ولا تخرج إلى التساؤل عن الخواص الطبيعية للموجودات إلا أن يكون ذلك بغرض تبيُّن هذه المقاصد الأصلية من ورائها.

• أن القرآن يجيب على أفضل وجه عن الأسئلة الموضوعة، فقد تقدم أن هذه الأسئلة ينبغي أن تتعلق بالمقاصد الأربعة المذكورة، أي أن تكون كالتالي: «من أين؟ وبأمر من تأتون؟ مَن سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ وما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟»؛[22] والقرآن هو وحده القادر على إيراد الأجوبة الصحيحة على مثل هذه الأسئلة والتي تكون شفاء لما في الصدور.

جـ- **مبدأ الاستدلال:** يرى بديع الزمان أن الصورة الأشمل والأيقن لمبدإ الاستدلال تتحقق هي الأخرى في القياس التمثيلي الذي تأخذ به حكمة القرآن، وذلك من الوجوه الآتية:

• أن هذا القياس يفيد في إقناع كافة الناس ولا يقتصر على فئة معدودة منهم، كما أنه يتسع لفنون مختلفة ولا ينحصر في فن واحد منها،[23] نظرا لأنه يُلْبِس الحقائق المخبَر بها لباس مألوفات الجمهور ومتخيلاته، ولا يكلفه إدراكَها على صورتها المجردة.[24]

• أنه يُمكِّن من تحصيل منظــور تقريـبيّ لِما يجاوز طور العقل المجرد من الحقائق الإلهية وشــؤون الربوبية،[٢٥] فيكون أقدر من هذا العقل.

• أنــه يؤمِّن طاعة الخيــال للعقل، فيحُدُّ من تشــكيكاته وتمويهاته التي تتهدد عادة اســتدلالاته غير التمثيلية،[٢٦] فيكون أقوى من هذه الاستدلالات.

• أنــه يجمع بين الطريقين الإدراكيين المتقابلين للإنســان، وهما: طريق العقل وطريــق الوجدان،[٢٧] فيكون اســتدلالا متكاملا.

• أنه يُثبِت قانونــا كليا بإظهار حالة خاصة منه في صورة مثال جزئي؛[٢٨] ومعنى هذا أن المثال عند بديع الزمان ليس مجرد شيء مشابه للشيء المُمَثَّل، بل يحكمه نفس القانون الذي يحكم هذا الشيء، بحيث يكون التمثيل عنده أقرب إلى الاستقراء منه إلى الاستنباط (أو القياس الجامع).[٢٩]

ومما تقدم، يتبين أن الحكمة لا يمكن أن تجتمع مع الفلسفة، لأن الخير والحق يصــيران كلُّهما في جانب الحكمة والشــرَّ والباطلَ يصيران كلُّهما في جانب الفلسفة، فتكونان متباينتين تباين النوعين؛ لذا، صح أن نســمي هذا الفصل النوعي بينهما باسم «الفصل الاستبدالي»،[٣٠] إذ تصبح الحكمة البديل الذي لا غنى عنه.

ومن شــأن العمل بهذا الفصل الثاني أن يُخرج لنا إنســانا متبصرا ومعتبرا ومعترفا وســعيدا وناجيا، أو قل **إنسانا مَرْضيا عليه.**

وإذا اجتمعت للإنسان الهداية والرضى، كان إنسانا منعَما عليــه؛ فإذن الحكيم الذي يختص بكونه يجعل الحكمة تســود الفلسفة، بل يجعلها تستغني كليا عن خدمة الفلسفة يكون حقًّا من أولئك الذين أنعم الله عليهم.

وخلاصة القول من هــذا التحليل لموقف بديع الزمان من العلاقة بين الفلســفة والحكمة هي أن بديع الزمان **انقلب** من **حال الفيلسوف** الذي يوافق فلاسفة الإسلام في القول بالوصل بين الفلســفة والحكمة، إما وصْل تداخــل يجلب الضلالة أو وصْل تصاحب يجلب غضب الله، إلى **حال الحكيم** الذي يقول بضرورة الفصــل بينهما، إما فصلا اســتتباعيا يجلب الهداية، فتكون الفلســفة في خدمة الحكمة، أو فصلا استبداليا يجلب رضى الله، فتكون الحكمة بديلا عن الفلسفة.

وواضــح أن هذا الانقلاب انقــلاب «كوبيرنيكي» بحق؛ فبعد أن كانت الفلســفة تُعَدّ موصولة بالحكمة، صارت تُعَدّ مفصولة عنها؛ وبعد أن كانت الفلسفة تستتبع الحكمة في حالة الاختلاف بينهما، أصبحت الحكمة هي التي تستتبع الفلسفة في حالة الاتفاق بينهما؛ وبعد أن كانت الفلسفة تضاهي الحكمة وجــودا، أضحت لا تضاهيها في هــذا الوجود، بل أضحت تفقده بوجود الحكمة.

وحينئذ، لا نســتغرب أن يلح بديع الزمان أيما إلحاح على وجود طورين متضادين في حياته: سعيد القديم وسعيد الجديد؛ ولذا، نعتقد أن العناصــر التي تفرّق بين هذين الطورين ينبغي البحث عنها في الموقفين المتعارضين اللذين وقفهما من العلاقة بين الفلســفة والحكمة، بحيث يكون الوصل بينهما هو المعيارَ الذي نحدد به فكر ســعيد القديم ويكــون الفصل بينهما هو المعيار الذي نحدد به فكر سعيد الجديد.

لكن هذا الانقــلاب «الكوبيرنيكي» هو نقيض للانقلاب «الكوبيرنيكي» الذي قام به «كانــط»؛ فإذا كان «كانط» قد جعل الحكمة تابعة للفلســفة في حال اتفاقهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الفلســفة تابعة للحكمة في الحال ذاته؛ وإذا كان «كانط» قد جعل الفلسفة بديلا عن الحكمة في حــال تعارضهما، فإن بديع الزمان، على العكس من ذلك، يجعل الحكمة بديلا عن الفلسفة في الحال ذاته.

ومــن هنا، يظهر جليّا أن البعد الذي يكتســبه إنتاج بديع الزمــان لا ينحصر في تركيا حيث آثار الفلســفة «الكانطية» قد فعلت فعلهــا وبدَّلت قِيَم أهلها تبديلا، ولا هو ينحصر في الأمة الإســلامية التي تفككت أوصالها وفقدت وِجهتها، وإنما يتعدى ذلك إلى العالم بأسْــره لِيُنقذ الإنسان، خاصيَّه وعاميَّه، من سلطان فكر فلسفي أضرَّ بوجوده في هذا العالم؛ ومن كان هــذا عمله، فما أجدر به أن يُعدَّ في حكماء العالم الذين رفعوا همة الإنســان إلى الاضطلاع بأمور روحه كاضطلاعه بأمور جســمه، ومهّدوا الطريق إلى تجديده، **فاستوى إنسانا آخر في عالم آخر.**

---

(*) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس - المغرب.

الهوامش:

(١) يقول: «إن الفلسفة التي توصَّل إليها الإنسان تحجب معجزات القدرة الإلهية وخوارق رحمته تعالى بستار العادات، فلا ترى دلائل الوحدانية المضمرة تحت تلك العاديات وتلك النعم الجليلة، ولا تبينها ولا تدل عليها، بينما إذا ما رأت ما هو **خارج عن العادة من جزئيات خاصة**، تتوجه إليه وتهتمّ به»، الملاحق، ص ٣٥٨.

(٢) يقول: «أما حكمة الفلسفة، فهي **تخفي** جميع معجزات القدرة الإلهية **وتسترها** تحت غطاء الإلفة والعادة»، الكلمات، ص ١٥٠.

(٣) يقول: «إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر، فإنه يصبح **آلة تعذيب** ووسيلة إزعاج، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة»، الشعاعات، ص ١٩.

(٤) يقول: «إن الفرق بين طريقي في «قطرة» المستفادة من القرآن وطريق أهل النظر والفلاسفة هو أني أحفر أينما كنت، فيخرج الماء؛ وهم تشبثوا بوضع ميازيب وأنابيب لمجيء الماء من طرف العالم ويُسلسلون سلاسل وسلالم إلى ما فوق العرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب **شياطين الأوهام**»، المثنوي العربي النوري، ص ١٧٠.

(٥) يقول: «وبسر التوحيد [...]، ينكشف السر المغلق للأسئلة المحيرة: من أين يأتي سيل الموجودات وقافلة المخلوقات؟ وإلى أين المصير؟ و لم جاء؟ وماذا يعمل؟...»، الشعاعات، ص ١٤.

(٦) «فلولا التوحيد لأصبح الإنسان **أشقى** المخلوقات وأدنى الموجودات وأضعف الحيوانات وأشد ذوي المشاعر حزنا وأكثرهم عذابا وألما.»، الشعاعات، ص ١٨.

(٧) يقول: «فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات حروفا، أي إنها تعبر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية في الموجودات؛ أما نظرة الفلسفة -المادية- الميّتة فتنظر في الأغلب **بالنظر الاسمي** إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة.»، الملاحق، ص ٩٠.

(٨) «أما الفلسفة، فإنما تنظر من الموجودات إلى وجوهها الناظرة إلى أنفسها **وأسبابها**»، المثنوي العربي النوري، ص ٧٧.

(٩) الكلمات، ص ٦٤٦.

(١٠) «إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا «أنا»، فهو يجوب بهم في وديان الضلالة؛ فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك «أنا»، وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم «أنا»، فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم **أنهم مثلهم يعبدون النفس**»، المكتوبات، ص ٥٤٩.

(١١) «والطريق الثاني المشار إليه بـ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فهو مسلك عبدة الأسباب والذين يحيلون الخلق والإيجاد إلى الوسائط ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق ومعرفة واجب الوجود ﷻ عن طريق العقل والفكر وحده كالحكماء المشائين»، الكلمات، ص ٦٥٠.

(١٢) وذلك مصداقا للآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩٢).

(١٣) تحاشى بديع الزمان أن يذكر ابن رشد باسمه -على خلاف ما فعل مع الفارابي وابن سينا- ولكنه نبه عليه بالصفة التي اشتهر بها، وهي «المشائي»، إذ هو شارح «أرسطو» الأكبر؛ ولا نريد أن نخوض هنا في الأسباب التي تكون قد دعته إلى هذا التكتم، وإنما يكفي أن نقول بأنه يجوز أن يفعل ذلك، إشفاقا عليه ورفقا بأتباعه المعاصرين.

(١٤) إشارات الإعجاز، ص ٣٦.

(١٥) يقول: «القرآن المبين أسمى وأغنى من أن يفتقر إلى تزكية العقل والنقل اللذين ألقيا إليه المقاليد، لأنه **إن لم يزكهما**، فشهادتهما لا تُسمَع»، صيقل الإسلام، ص ٣٦.

(١٦) يقول: «فمتى استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة؛ ومتى انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة»، الكلمات، ص ٦٣٩.

(١٧) لِتلاحظ أن الفصل الاستتباعي بين الحكمة والفلسفة، لما كان فصلا في الدرجة فحسب، جاز أن تجتمع فيه الحكمة والفلسفة اجتماع التابع مع المتبوع، بحيث يكون وضعه المنطقي أشبه بوضع ما يُسمى بـ«رابط الفصل الجامع»، وهو الفصل الذي يمكن أن يصدق فيه الطرفان المفصولان معا؛ ولا ينفع الاعتراض بأنه نوع من الوصل التداخلي، ذلك لأنه لا يشارك هذا الوصل إلا في هذه الحال من حالات الصدق، ويختلف عنه في إمكان أن يصدق بصدق أحد المفصولين دون الآخر، أو قل بإيجاز إن الجمع الذي يكون مع تخيير ليس كالجمع الذي لا تخيير معه.

(١٨) يرى بديع الزمان أن الفلسفة الحديثة أقل ضررا من الفلسفة القديمة، لأنها أكثر منها أخذا بأسباب العقل والنقد والعلم؛ انظر صيقل الإسلام، ص ٤١، وأيضا ص ٣٥-٣٦.

(١٩) الملاحق، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢٠) المكتوبات، ص ٤٧٥؛ الملاحق، ص ١٨٣.

(٢١) إشارات الإعجاز، ص ٢٤؛ صيقل الإسلام، ص ١٢٠.

(٢٢) صيقل الإسلام، ص ٢٩؛ وأيضا، إشارات الإعجاز، ص ٢٣.

(٢٣) صيقل الإسلام، ص ٣٢٠.

(٢٤) صيقل الإسلام، ص ٥٩.

(٢٥) المكتوبات، ص ٣٧٦.

(٢٦) يقول: «ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف، لأن في التمثيل سرا لطيفا وحكمة عالية، إذ به يصير **الوهم مغلوبا للعقل والخيال مجبورا للانقياد للفكر**...»، إشارات الإعجاز، ص ١١٣.

(٢٧) إشارات الإعجاز، ص ١٢٦.

(٢٨) الكلمات، ص ٧٣٥-٧٣٦.

(٢٩) معلوم أن فقهاء العلم اختلفوا كثيرا في تحديد البنية المنطقية لقياس التمثيل، فبعضهم جعلها بنية مستقلة وبعضهم جعلها أشبه ببنية الاستقراء في حين جعلها غيرهم أشبه ببنية الاستنباط، ورأينا أنها بنية كبرى مركبة من بنيتين فرعيتين: بنية استقرائية وبنية استنباطية، انظر التفاصيل في كتابنا: **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص ٦٥-٦٦.

(٣٠) لِتلاحظ أن الوضع المنطقي للفصل الاستبدالي أشبه بوضع ما يُسمى بـ«رابط الفصل المانع» (أو «الفصل الاستبعادي»)، ومعلوم أن هذا الرابط لا يصدق إلا بصدق أحد المفصولين دون الآخر.



# إليك سآوي

نبيلة الخطيب *

إليكَ سآوي
إذا ما تخففتُ
من كل هذا الأديم
كما السّهم..
من بؤرة القوس
أرنو لميعاد عهدٍ قديمٍ.. قديم،
فأنتَ الفضاءُ
إذا ضاقت الأرضُ
أنت الرفيقُ
إذا سافر العمرُ
ثمّ إذا خلت الدارُ
أنت النديم،
إليك أفرّ
ولستُ بخائفةٍ غير منك
لديكَ أقرّ..
أجِرْني..
فإني نفضتُ عن القلبِ
وهْمَ العذاباتِ
والذكريات التي لا تليق
وأدركتُ أني غَفوتُ طويلاً
على نمُرُقٍ من سَديمٍ عتيق
أجِرْني..
لقد عدتُ يا سيّدي
بين جنبيّ وهَجٌ
يُذيبُ صقيعَ الذوائب
كي يُشعلَ الروحَ شوقا
يسَربلُ قلبي هوىً سرَمديّ
وإني وقد فرّقتني المسافاتُ
أمسيتُ أهفو إليّ
فأين تُرابي
إذا لم أجدْني سأغدو
وقد أنهكتني الأعاصيرُ ليّا؟!
حُفاةً أتينا
ونمضي حُفاةً
فما بالنا بين هذا وذاكَ
نطيلُ السباتا؟!
ألم يُدرك القومُ
من عهد قارونَ
أنّ الذين يروحونَ
لا يأبهونَ بما يهجرون؟!
وأنّ المسافرَ
يستدبرُ الدارَ عند الرحيل
ويستقبلُ الفيء عند الْمَقيل؟!
هنيئاً لمن مكّنوا الحرْثَ
قبلَ انهمارِ السماء
وبالزّيت طفّتْ قناديلهم
حينما أغمضَ الليلُ جفنَ الضياء
أيا سيد النفس!
تشتاقكَ النفسُ
تهفو إليك
فإما يؤذّنُ في الروحِ لحنٌ رَخيم
سأنفكّ عن صفحةَ الطّين عجلى
وآتي..
فدعني جوارَكَ
في روضة
من نعيمٍ مُقيم.

(*) شاعرة وأديبة – الأردن



# التربية ودفء المشاعر

محمد حسين محمد *

إنّ صياغة عقل التلميذ وتشكيل وجدانه الإنساني منوطان بالسنوات الأولى من حياته المدرسية. فما لم يكن المعلم دافئ المشاعر ورقيق الأحاسيس، ومفعم الوجدان بحب الإنسان وعشق الطفولة، فإن العملية التربوية برمتها يمكن أن تتعرض للإخفاق. فالمعلم والتلميذ قطبا العملية التربوية.

### أولا: المعلم ودفء المشاعر

«المعلم هو حجر الزاوية في العملية التعليمية»، هذه مقولة يرددها ويؤكد عليها التربويون. وذلك لأن المعلم الفعال الناجح هو القادر على تحويل المناهج الصلدة إلى مواقف تعليمية وأنشطة مؤثرة تهيّئ المجال لنمو الطفل في جميع النواحي: الوجدانية والمعرفية والنفسية والحركية. ومهما كانت الإدارة المدرسية ناجحة، ومهما كان نمو المناهج والبيئة المعرفية في تطور واستمرار دائم، وكان ذلك في وجود معلّم ليس على قدر من الإيمان بالعملية التربوية والحنكة (الخبرة) الفنّية؛ فإن العملية التعليمية لن يكتب لها النجاح ولن تحقق الهدف المرجو منها.

المربّون جميعا متّفقون على أن المعلم المتّصف بـ«دفء المشاعر» هو مؤسس الأمم. فالحب عامل هام في تكوين العلاقات السليمة بين الناس، وهو الذى يؤلف بينهم، ويدفعهم إلى التفاعل والتماسك والتكافل. والمعلم الممتلئ بالمحبة لتلاميذه يقوم بالدور الأساسي في تكوين شخصيتهم. وإحاطة المعلم للطفل بمشاعر المحبة والحنان والعطف يبثّ في نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة التي هي أساس الحاجات النفسية الأخرى من رغبة في النجاح وتقدير الآخرين وإثبات الذات...

فإذا حرم الطفل هذا الحب والإحساس بالأمان لأي سبب من الأسباب فإنه يصيبه القلق وتضطرب شخصيته ويصبح عرضة فيما بعد للإصابة بالخوف والتوتّر الذي قد يؤدي إلى المرض النفسي. وقد حثّ الرسول ﷺ الناس جميعهم على الحب والمودة، وذلك أن نبدأ بحب الله ورسوله؛ وقد كان من دعائه ﷺ: «اللهم ارزُقني حبّك وحبَّ مَن يَنفعُني حبُّه عندك، اللهم ما رزَقتَني ممّا أُحبُّ فاجعَلْه قوّةً لي فيما تُحبُّ، اللهم وما زوَيتَ عنّي ممّا أحبُّ فاجعَلْه لي قوة فيما تُحبُّ» (رواه الترمذي).

إن حب الإنسان لله تعالى هو المنبع الرئيسى لكل مشاعر الحب التي يشعر بها الإنسان لكل شيء آخر في الوجود؛ فمِن حب الإنسان لله تعالى ينبعث حبه لرسول الله ﷺ ثم حبه لتلاميذه بل لجميع مخلوقاته وحبه لفعل الخير وحب كل من يقربه إلى الله تعالى. ويظهر هذا بوضوح في قول الرسول ﷺ: «من أَحبَّ للهِ وأَبْغضَ للهِ وأَعطَى للهِ ومنَعَ للهِ فَقَد استَكمَلَ الإيمانَ» (رواه أبو داوود).

وإذا أحب المعلم المؤمن تلاميذه وحَنا عليهم وأحاطهم بحبه وأشعرهم به، فربّتَ على كتف هذا، وابتسم في وجه هذا، ولم يعنف هذا، وشجّع هذا، وعزّز أداء هذا، فإن رد الفعل لتلاميذه أنهم يطيعونه؛ فالمحب يطيع محبوبه ويحترمه ويقدّر دَوره في حياته، وإذا استشعر التلميذ بأن حب المعلم له نابع من حبه لله ورسوله زاد في سلوكياته السوية وزاد في إخلاصه لمعلمه ولزملائه. وبهذا يصبح الطلاب أفراداً يتمسكون بتعاليم دينهم ومبادئه، ويلتفّون حول معلمهم يتعلمون منه ويقتدون

به، ويأتمرون بأمره، مما يجعلهم في المستقبل صفاً واحداً وقلباً واحداً في مواجهة تكاليف الحياة.

**أ- كيف يحب المعلم تلاميذه وكيف يجعلهم يحبونه؟**

• أن يكون على طبيعته وسجيته، وأن يُفصح عن شخصيته وما يحب وما يكره، وأن يعبر عن آرائه.

• أن يشجّع التلاميذ على الاقتراب منه، وعلى الصراحة والوضوح معه، مع حرصه على أن يحافظ على أسرارهم.

• أن يؤثّر فيهم ويسهم في علاج مشكلاتهم.

• أن يستخدم الاقتراب الفيزيقي للتلاميذ غير المهدّد، ويمكن استخدام الاقتراب من التلاميذ كوسيلة للتعبير عن الإحساس بالثقة والانفتاح.

• أن يستخدم روح الدعابة مع التعبير عن الإحساس بالثقة والانفتاح.

• أن يشجّعهم على إبداء آرائهم والتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم.

• أن يكون قدوة حسنة لهم في كل أعماله وسلوكه مقلّلاً من الإرشادات العلاجية والانتقادات.

• أن يستخدم حواسّه كلها في التقرب إليهم.

• أن يحرص على زيارة تلميذه إذا مرض.

• أن يكون مستمعاً جيّداً لتلاميذه ويشجّعهم على الكلام وإبداء آرائهم.

• أن يُشْعر الطالب بأهميته عنده.

**ب- اختلاف جنس المعلم حسب المرحلة التعليمية**

في مرحلة ما قبل المدرسة التي تعرف باسم الروضة المرأة هي الأنسب لهذه المرحلة (٤-٦ سنوات)، فهي امتداد لدور الأم في عملية التنشئة الاجتماعية، حتى لا يشعر الطفل بأي فرق في حياته المنزلية وحياته المدرسية الجديدة. فالإشباع النفسي



وبث الطمأنينة وشعوره بالأمن يجعله بعيداً عن الخوف والقلق والتّوتر كما يجعله يشعر بالرضا والغبطة والسعادة، لأن تكوينها الجسمي والنفسي مؤهَّل لذلك؛ فهي تسعى إلى تحقيق الطمأنينة لأفراد في حاجة إلى الأمن والطمأنينة. وفي هذا الجو الآمن تبدأ العلاقات الاجتماعية للطفل فيكتسب الشعور بقيمته وبذاته، وفي هذا الجو تتكون خبراته الأولى بالحب والحماية والأمن والطمأنينة، كما يزداد تفاعله مع جماعة الفصل، وهكذا تتبلْور شخصية الطفل في جو صحي.

أما في المرحلة الثانوية سواء البنين أم البنات فالطالب في حاجة إلى صديق يثق فيه ويستمع إليه ويوجهه.

**جـ- التصرفات التي يجب أن يتجنّبها المعلم حتى يحبّه التلاميذ**

يأتي على رأس التصرفات التي يجب أن يتجنبها المدرس التفرقة في المعاملة وذلك أن أساس المعاملة في الإسلام هو العدل، يستوى في ذلك الصغار والكبار على السواء، لذا أكّد النبي ﷺ على ضرورة مراعاة العدل بين الأبناء فقال: «اعْدِلُوا بين أبنائِكُم، اعْدِلُوا بين أبنائِكُم» (رواه النسائي).

وقد يُفرط المدرس في معاملة تلميذه، ويدلّله كثيراً ولا يظهر الحزم في المواقف التي تحتاج إلى حزم، أو يثير الغيرة بينه وبين غيره من تلاميذ فصله؛ فيكثر من الموازنات بينهم أو يَخْلق جو يشعر التلاميذ بالتفرقة فيما بينهم في التقدير والمعاملة.

كما يجب على المعلم ألا يُشعر أيّ تلميذ في الفصل بأنه يتجاهله؛ فالإنسان يكره أن يهمله أحد أو يتجاهله. ففي مشاعر كل إنسان رسالة صافية تقول: «مِن فضلك زكّني! من فضلك تقبل وجودي، لا تمر عليّ غير آبِه بي، أرجوك الاعتراف بكياني».

**ثانيا: دفء المشاعر عند الوالدين واستكمال المعلم لهذا الدور**

حب الطفل لأمه هو أول حب يشعر به عند ميلاده، وذلك لارتباط الأم بإشباع جميع حاجاته الأساسية وما يصاحب إشباعها من شعور بالمتعة واللذة. ثم يتكون بعد ذلك حبه للآخرين المحيطين به كالأب والإخوة والأصدقاء والأقارب والجيران والناس عامة.

وكما يشعر الطفل بحبه لوالديه ولأفراد أسرته، فإنه يشعر كذلك بحبهم له وعطفهم وحنانهم عليه واهتمامهم به ورعايتهم له. وهذا الجو المشبَع بالحب المتبادل الذي ينشأ فيه الطفل عامل

هام في تكوين شخصيته السوية وشعوره بالأمن النفسي والثقة بالنفس والسعادة.

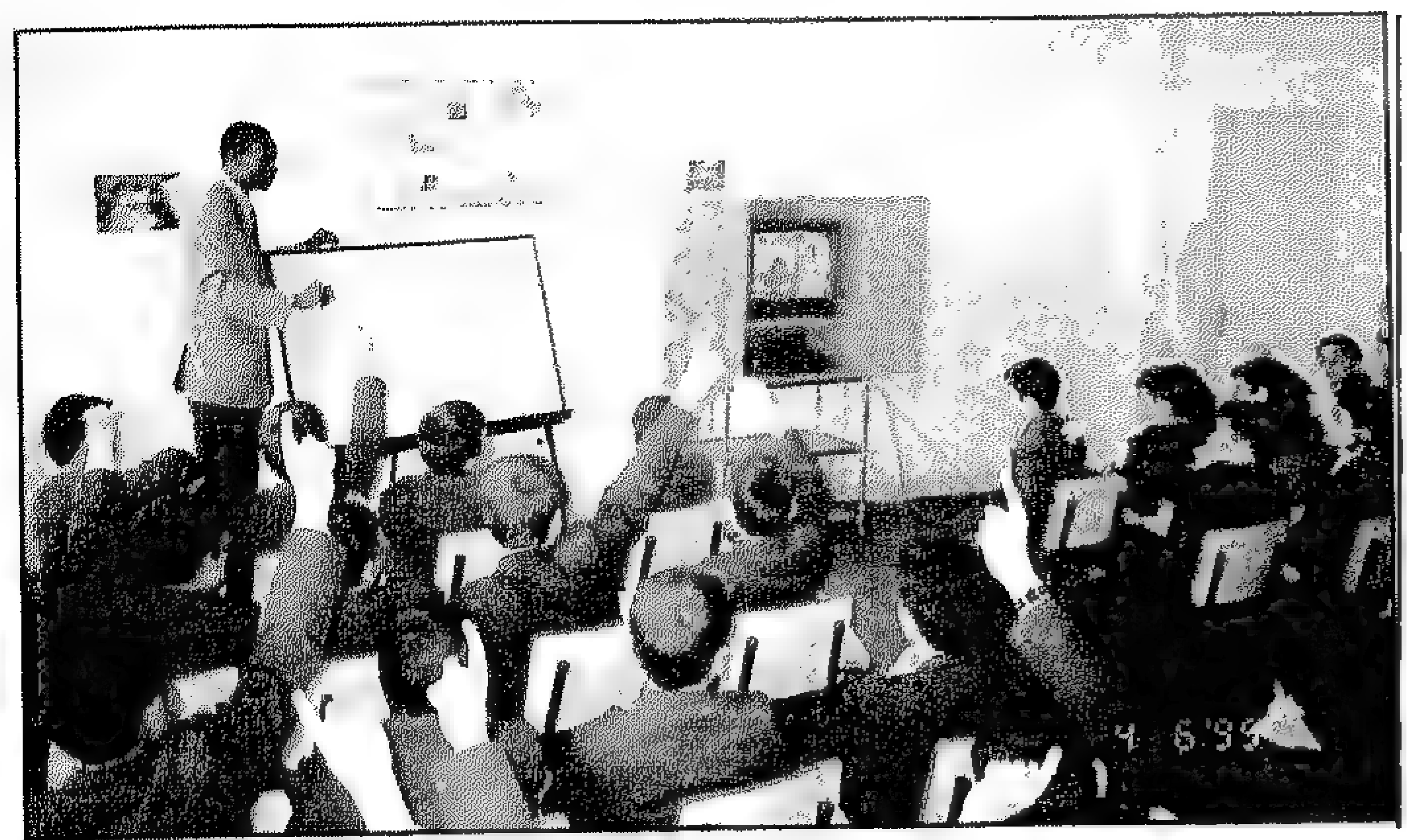
ويلعب المعلم دور الأب أو الأم في المدرسة، فهو باقترابه من الطفل والإحساس به والشعور بالحب نحوه تكمّل المسيرة في عملية التربية، بل ويؤكد للطفل استمرارية الجو المشبّع بالحب في الحياة.

والطفل الذي ينشأ هذه النشأة السوية يَشعر عادة بمحبته للناس جميعهم ويتودد إليهم، ويحسن معاملتهم ويعطف على من يحتاج منهم إلى عطف، ويقوم بمد يد العون إلى من يحتاج منهم إلى عون أو مساعدة. ومحبة الإنسان للناس ومساعدتهم ومدّ يد العون إليهم من العوامل الهامة التي تجعل الإنسان يشعر بالانتماء إلى المجتمع وبأنه عضو نافع فيه. وإن من شأن ذلك أن يجعله يشعر بالرضا عن نفسه وبالغبطة والسعادة. وقد أدرك المحللون النفسيون المحدثون أهمّية العلاقات الإنسانية في الصحة النفسية للإنسان.

### ثالثا: دفء المشاعر في الجو المدرسي

لا يكفي المعلم وحده في إشاعة جو المحبة في المدرسة، بل لا بد من تضافر جهود الجميع لتحقيق ذلك. فالحب مسؤولية جميع العاملين، ولكي يسود الجوّ المدرسيّ الحبُّ والألفة والمحبة يمكن الأخذ بالتوصيات الآتية:

- أن يكون المعلمون قدوة حسنة في أفعالهم وأقوالهم.
- أن يشعر العاملون بالمدرسة بأن روح الحب والألفة والمودة تنتشر بينهم، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أن نخبر من نحبه بحبنا له فقال: «إذا أَحبَّ الرجُلُ أخاه فَلْيُخبِرْه أنّه يُحبُّه» (رواه أبو داود).
- الابتسامة والملاطفة بين كل العاملين تُدخل السرور على قلب كل من يعمل في المدرسة، فهكذا كان خلق رسول الله ﷺ. قال جَريرُ بن عبد الله ﷺ: «ما حَجَبَني رسول الله ﷺ مُنذُ أَسلمتُ ولا رَآني إلا ضَحِكَ» (رواه مسلم). وما قاله عبد الله بن الحارث ﷺ: «ما رأيتُ أَحدًا أَكثرَ تبسّمًا من رسول الله ﷺ» (رواه الترمذي). فالابتسامة هي انفراج الأسارير عن انفعالات صادقة داخل النفس تحرّك الوجدان، وتعبيرات الوجه تتكلم بصوت أعمق أثراً من صوت اللسان.
- أن يكون شعار كل العاملين: «إذا أردت أن يحبك الناس فازهد فيما عند الناس»
- البعد عن سوء الظن والبغضاء امتثالا لقوله ﷺ: «إيّاكُمْ وَالظَّنّ فإن الظَّنّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسوا ولا تَجَسَّسوا ولا تَنافَسوا ولا تَحاسَدوا ولا تَباغَضوا ولا تَدابَروا، وكُونوا عِبادَ الله إِخوَانًا» (رواه مسلم).

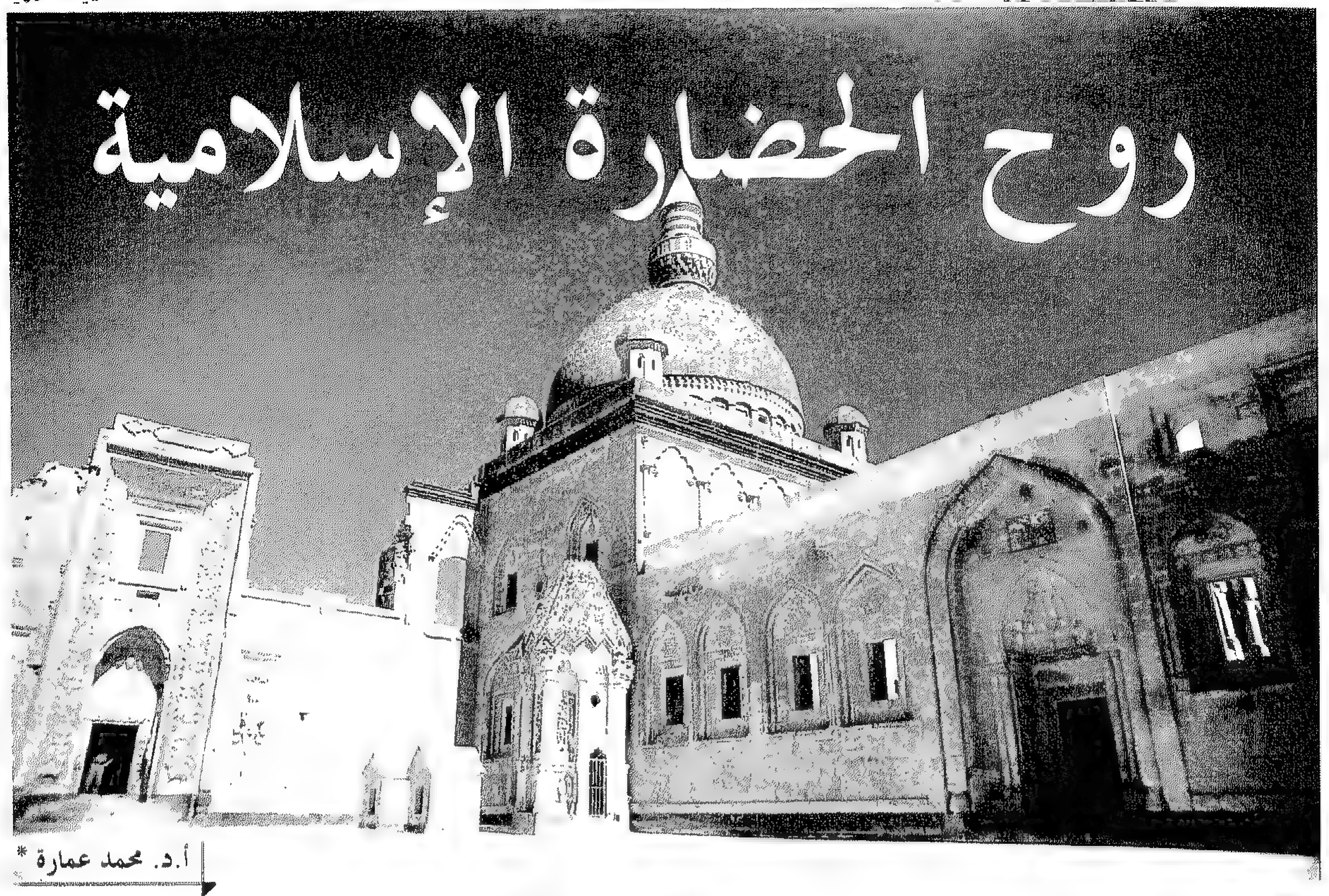


- أن يحرص العاملون على التزاور، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من عَادَ مَريضًا أو زَارَ أَخًا له في الله نَاداهُ مُنادٍ أَنْ طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ وتَبَوَّأْتَ من الجنّة مَنْزِلاً» (رواه الترمذي). فالزيارة وسيلة لزيادة الصلات ولزيادة المودة والتآلف بين القلوب.
- أن يسود الجوّ المدرسيّ التسامحُ. فالواجب على المسلم أن يتخلق مع الناس بخلق الحلم والعفو والتسامح. فإن الصدود وإضمار الانتقام وانتظار الرد بالمثل تزيد حرارة القلب حتى تدعه قلقاً مضطرباً. وكان ﷺ يغرس في نفوس المسلمين دوماً خلق العفو والتسامح وإن قوبل بالصد والإعراض والقطيعة قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).
- أن يضع كلُّ من يعمل في المدرسة نفسه في خدمة أخيه وزميله، ويمد له يداً مخلصة نافعة مجردة من الأنانية والمصلحة الذاتية. والنبي ﷺ يقول: «المسلِمُ أخو المسلم لا يَظْلِمُه ولا يُسلِمُه، من كان في حاجَة أخيه كان الله في حاجَته، ومَنْ فرّجَ عن مُسلم كُرْبَةً فَرّجَ الله عنه بها كُرْبَةً من كُرَبِ يَوم القيامة، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يومَ القيامة» (رواه مسلم).
- أن يظلّل تعاملَنا مع أولياء الأمور وغيرهم من زائري المدرسة الآيةُ الكريمةُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وبعد، هذا ما حضرني من أفكار حول العمل التربوي الإسلامي والإنساني، آمل أن أكون قد أسهمتُ ولو بقسط لا بأس به في رسم معالم العلم التربوي المطلوب. هذا وفوق كل ذي علم عليم.

---

(*) مستشار البحوث التربوية بوزارة التربية والتعليم بمصر سابقا، والمستشار التربوي لجمعية مصر المحروسة.



# روح الحضارة الإسلامية

أ.د. محمد عمارة *

لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية، هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام..

وكانت «دار الأرقم بن أبي الأرقم» في مرحلة سرّية الدعوة الإسلامية، أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع وتطبيق القانون وبلورة العلاقات الدولية كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدي القرآن الكريم. ذلك الذي أصبح خُلق سلوك وممارسات، وسجية للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة النبوية وقبل الدولة الإسلامية -وهي المدينة المنورة- قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم.

وبعد إنجاز الصياغة الإسلامية -بالتربية- للإنسان، جاءت كل الإنجازات والفتوحات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيداً لهذا الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان.. جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدْي الإسلام.

إن الدعوة الدينية في الإسلام لم تقف عند حدود تدين الإنسان، وتحقيق عبوديته لله بالشعائر المعبِّرة عن الإيمان القلبي، والمفصحة عن علاقته بالسماء.. وإنما امتدت هذه الدعوة لتحقق ائتلاف هذا الإنسان بالأمة والمجتمع والكون، فتوحدت في نفس هذا الإنسان عوالم الغيب والشهادة، وائتلفت فيها وتوازنت علاقات الفرد بالمجموع، والخاص بالعام؛ فتدينت الدنيا، مع بقائها دنيا، عندما صاغ الإسلام نفس الإنسان المسلم ووجدانه وعقله تلك الصياغة التي ائتلفت فيها وتوازنت آيات الله في الوحي السماوي بآياته في الأنفس والآفاق.

إن دين الإسلام لا يقوم ولا يقام بالتبتل الفردي والخلاص الذاتي، وإنما لا بد لإقامته وتحقيق كامل فرائضه من أمة ووطن واجتماع ومجتمع، وفروض اجتماعية، يتوجه الخطاب فيها والتكليف بها للأمة. وهذه الفروض الاجتماعية أهم وآكد من الفروض الفردية، بدليل أن إثم التخلف عن الفريضة الفردية يقع على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن الفريضة الاجتماعية يقع على الأمة جمعاء.

وفي دين الإسلام، اقترنت الهجرة في سبيل الله بتأسيس الدولة، وإقامة المجتمع، وتطبيق القانون، وإقامة نسيج اجتماعي بين الرعية يحقق المؤاخاة، لا في الحقوق الدينية المجردة فقط، وإنما في أمور المعاش الدنيوية أيضاً؛ بل لقد امتد هذا النسيج

بمعايير المواطنة، وحق الاختلاف حتى في الدين، إلى حيث ضم هذا النسيج غير المسلمين مع المسلمين.

فالهجرة إلى الله ليست رهبانية، تخلص فيها وبها الذات، بمعزل عن الحياة والناس.. بل إن رهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد، الذي هو فريضة اجتماعية تستلزم وجود الأمة والوطن والاجتماع.

لقد أحدثت الدعوة الدينية الإسلامية أثراً تكوينياً تربوياً في شخصية الفرد المسلم، أصبح عاملاً نفسانياً، حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي، الطبيبعي منها والشرعي، المدني منها والديني، العقلي منها والنقلي، المادي منها والمجرد.. فكان ذلك الائتلاف حضارة إسلامية، أبدعها الإنسان الذي صاغته الدعوة الإسلامية. وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ فالرسالات الدينية التي سبقت رسالة الإسلام الخاتمة، إما أنها تزامنت مع حضارات غير متدينة، فتعايشت معها، دون أن تغيرها وتصبغها بصبغتها؛ بسبب وقوف تلك الرسالات عند حدود خالص الدين، وإما أن تلك الحضارات السابقة على الحضارة الإسلامية قد عاشت في أزمنة الفترة التي خلت من رسالات الدين..

بينما تميز الإسلام بكونه ديناً فجّر حضارة، وصاغ مدنية، وأثمر اجتماعاً إنسانياً، وألّف في نفس الإنسان -بالمنهاج التربوي الشامل- ذلك الائتلاف المتوازن، الذي جعل هذا الإنسان يبدع الحضارة المصطبغة بصبغة الدين. لقد حقق الدين الإسلامي الائتلاف والتوازن والأمن في نفس الإنسان المسلم، فجاء الإبداع المدني لهذا الإنسان -أي الحضارة الإسلامية- ثمرة مجسدة لهذا الذي أحدثه الدين في نفس هذا الإنسان.. فلما حدث وبعدت هذه الحضارة وثقافتها عن هذه الصبغة كان هذا الخلل الذي نشكو منه، والذي حدث منذ قرون، والذي تطبّ لدائه كل دعوات وحركات الإصلاح في أمة الإسلام

وإذا كان الإسلام هو سبب تقدم المسلمين، ونهوضهم الحضاري، وازدهارهم الثقافي.. فما سبب التخلف الذي أصاب المسلمين، مع بقاء الإسلام كما هو، على حاله الذي كان عليه عندما فجر ينابيع التقدم في الحياة الإسلامية؟!

إن السبب هو غيبة «الروح» (روح الدين الإسلامي) عن الحضارة (الحضارة الإسلامية)، هو انقطاع الاتصال بين الإسلام وحضارة المسلمين.. هذه الروح التي جعلت الحضارة إسلامية، بل والتي فجرتها وصبغتها بصبغة الإسلام..

لقد جلس الحسن البصري إلى واعظ من الوعاظ، فلم يتأثر قلبه بموعظته، فسأل الحسنُ الواعظ: «يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي؟». إن انقطاع الاتصال، لغيبة الروح، هو سبب المرض والمأزق الحضاري، الذي تطب له وتبحث عن علاجه مختلف مدارس الإصلاح.

فما هذه الروح التي جعلت الإسلام -دون الديانات الأخرى- يصنع حضارة وثقافة، ولايقف عند مجرد الدين؟! وأين موطن الخلل الذي عطل الفعل الإسلامي في الحضارة والثقافة؛ فتراجعت الحضارة الإسلامية، وضمرت الثقافة الإسلامية، مع بقاء الإسلام «الدين» كما هو، وبقاء الإيمان به والاستمساك بعراه؟!

لقد عرض الشيخ محمد الفاضل بن عاشور لهذه القضية المحورية عندما تحدث عن الأمور التالية:

### بناء الحضارة والثقافة

تميز الإسلام «الدين» بإفراز الحضارة، وبناء الثقافة: «فإذا كان الإسلام، باعتباره ديناً، يشترك مع غيره من الأديان في القضايا التي هي موضوع الديانات عامة، فإن للإسلام نواحي ينفرد بها عن تلك الديانات، التي اشترك معها في القضايا الدينية بصفة عامة، إذ تكون له جهات اتصال بالثقافات والحضارات ليست لغيره من الأديان الأخرى.. فهذه التي نسميها الحضارة الإسلامية، أو تلك التي نسميها الثقافة الإسلامية، إنما هي سلاسل من الأحداث والأوضاع والكيفيات الاجتماعية والذهنية، كان الإسلام مبدأ نشأتها وسبب تكوينها. فلم يقف الإسلام عند التعايش مع العلم، وإنما أصبح كل موضوع علمي ذا صلة بالعقيدة الدينية، وصار الارتباط بين الدين والمعرفة العقلية، أو بين علم الطبيعة وعلم ما وراءها ارتباط التفاعل والتمازج. ونشأ من ذلك اتجاه نحو الحياة والسلوك فيها، يدفع به العامل الديني الاعتقادي في كل وجه من وجوهه، وسبيل من سبله؛ فصار الداعي الديني يتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب، وما يصوغ صاحب الفن. وصارت المعرفة العلمية سنداً لكلام المتكلم، وفقه الفقيه، وتصوف الصوفي، على الصورة التي ربطت عناصر المعرفة، وأخرجت كتب العقيدة الإسلامية جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية، مع الحقائق الاعتقادية؛ يتجانس فيها العلم مع الدين، ويتساند العقلي والنقلي. لقد تكوّن المجتمع

الإسلامي بإثر دعوة دينية، إنه مجتمع ديني بالمعنى الأخص، كان الدين فيه العامل الأول المباشر. ومن دعوة الدين، والإيمان بها، اكتسب الشعب الذي استجاب لتلك الدعوة وامتاز بذلك الإيمان خلالاً نفسية جديدة. لم يستفد علماً ولا صناعة ولا قوة مادية، ولكن الذين اكتسبه من الخلال طوّع العلم والصناعة والقوة المادية؛ فكانت المدارك الدينية وحدها هي التي فتحت أمام نظر المسلم آفاق الكون للتأمل والاعتبار، والمعرفة والإيمان. فالحقيقة الاعتقادية الإلهية، هي الأساس لكل ما بنت الحضارة الإسلامية من هياكل حسية ومعنوية. وإنسان هذه الحضارة، بالدين فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته. وكذلك استمرت مظاهر الحضارة متصلة في نفسه بالدين، وعوامل الدين فعالة في مظاهر الحضارة.»

## التوازن والانسجام

كذلك امتازت هذه الحضارة الإسلامية وثقافتها بالتوازن والانسجام؛ لأنها ثمرة لامتياز الإسلام بتحقيق التكامل والتوازن والانسجام في مصادر المعرفة الإنسانية: «فكل الحقائق، المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، هي في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المدرّجة، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز. فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية. ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية. ثم المدركات العقلية، تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها. وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطريق، يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي. فعقل الإنسان وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضا، ولا يقطع أحد سبيل الآخر. لقد كانت الحضارة الإسلامية من أثر إنسان اكتسب وضعاً منسجماً في ذاته، آمنا إلى نفسه، فصنع على مثال نفسه حضارة أكسبها مما اكتسب، وأفاء عليها مما أفاء الله عليه، حتى فاقت بما فيها من انسجام غيرها من الحضارات.»

## ما أسباب التخلف؟

لكن ما الذي حدث حتى تخلفت الحضارة الإسلامية وتهلهلت ثقافتها، مع بقاء الإسلام -الذي صنعهما وحقق لهما الازدهار الذي دام لعدة قرون، كانا فيه منارة للعالمين- على ما هو عليه؟! «لم يكن المصاب العزيز هو الإسلام، وإنما كان الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية. وكانتا تتطلعان إلى الإسلام بذاته، تحنان إليه، وترجوان شفاءهما عنده. وكان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الإسلامي، في حضارته وثقافته، ليس إلا أمراً آتيا من انحراف عن الأصل، وانقلاب في الوضع، وانفلات عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع؛ فلقد أصاب الحضارة والثقافة ما عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها..»

فالخلل لم يحدث في ذات الإسلام؛ وإنما في توقف عقيدة الإسلام عن أن تكون روح الحضارة، وانكماش الإرادة الاعتقادية البناءة للحضارة، وغربة الحضاري عن الديني، وتفكيك الدين عن الدنيا: «وإن تبيّن الناحية التي أصابتها العلة من العقيدة، هو الذي يكشف عن الأسباب التي قضت بضعف الحضارة وتهلهلها. إن الذي حدث في العقيدة الدينية، وقضى بتضعضع الحضارة، إنما هو انكماش صدّها عن أن تخلع من روحها على الحضارة، فأصبحت الحضارة خائرة جامدة، لا تتقدم. وما كان ذلك الانكماش إلا أثراً من آثار الضعف، الذي أصاب العقيدة في جوهرها. إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت؛ فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في واد والعقيدة الدينية في واد. وبقي المسلم وفيّاً لعقيدته الدينية، غيوراً عليها، من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئناً إلى واقعها من جهة أخرى. حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين، وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن الدين خيرٌ غير واقع، والدنيا شر واقع، وأن العبد المسلم يحمل بين جنبيه ديناً لا يؤثر فيه إلا لماماً، ويعيش في دنيا لا يعرف فيها إلا كل ما يبعد به عن الدين. ثم هجمت عليه في حياته العملية مدنيات أجنبية عنه، فيها العلم، وفيها الصناعة، وفيها القوة، وفيها الحكمة؛ فلم يجد من إرادته الدينية ما يتناول به هذه المدنية، كما تناول المدنيات التي احتك بها من قبل، يوم كانت إرادته الدينية قوية سليمة، فوقف أمامها

جامداً، واعتبرها من جملة صور الحياة التي كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين..».

ذلك هو موطن الخلل الذي كان ابن خلدون من أفضل من أدركه، وحلله.. «لقد حلل ابن خلدون المشكلة تحليلاً دقيقاً، عندما جعل شؤون السياسة والعمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية، تبعاً لشأن الدين. وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية أصلاً وأساساً لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود العمران -في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة- وانتقاص الصنائع، وتلاشي ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعاً إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية، فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّناً إيمانياً، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكرية. وإذا كان الناس يكتفون بأن يمثلوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها. فانقلاب الخلافة إلى ملك ليس العلة، وإنما هو عَرض لعلة تغيّر الوازع الديني إلى مقاصد التغلّب والقهر، والتقلّب في الشهوات والملاذ، وحلول عصبية الدولة محل عصبية الدين. لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح روحها، وهو العقيدة الدينية».

## حجم المشكلة

وإذا كانت هذه هي المشكلة، فما هو حجمها؟ وما هو عمرها؟ إن حجم هذه المشكلة ليس بالهين، وعمرها ليس بالقصير. «وإذا كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد تقاصرت وتراجعت وتخلخلت، وأن الثقافة قد ذوتْ وانكمشت واصفرت، وأوشكت أن تصير حطاماً، فإن ذلك ليس وليد الأمس، ولا أمسه. ولكنه الأدواء التي استفحلت في القرون الأخيرة، حتى أعضلت، وعز دواؤها، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتفاقم آلامها وأخطارها حتى انتهت إلى الوضع المفزع، الذي ضج قرننا الحاضر منه بالشكوى..»

## ما هو الحل؟

وأخيراً وبعد تحديد روح الحضارة الإسلامية، وتشخيص موطن الخلل الذي أصاب حضارتنا وثقافتنا؛ فما هو الحل الحقيقي لهذه المشكلة؟ والمخرج من هذا المأزق الذي يأخذ بخناق الأمة؟

إن الحل هو في العودة إلى الروح التي صنعت الحضارة المزدهرة والثقافة المتألقة. إنه عودة الروح الدينية لتصوغ النهضة الحضارية المتميزة والمستقلة. وهذا هو المعنى الحقيقي لمقولة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. «فلولا التكوّن الفردي المكّي، والتكوّن الاجتماعي المدني، لما كانت آثار الحضارة التي تبدت في عواصم الإسلام. فإذا كان الناس اليوم يحنّون إلى عهود ذهبية، ازدهرت بها تلك العواصم، ويتحرقون إلى إحيائها وتجديدها، فأجدر بهم أن يعودوا إلى العامل الأصلي الذي ولّد تلك العصور الذهبية، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعتها، ألا وهو العامل التربوي الإسلامي، الذي كوّن الفرد قبل أن يكوّن المجتمع، ومهد للثقافة طريقها قبل أن يتناول عناصر المعرفة التي ألّفت كيانها».

أما إذا وقفنا عند «استقلال العَلَم والنشيد»، دون حقيقة «الاستقلال الحضاري»، الذي هو ثمرة للصبغة الإسلامية المتميزة، فلن نخرج من هذا المأزق الذي نعيش فيه. «لقد خرج العالم الإسلامي من تحت حكم الغير، واسترجع سيادته الذاتية، لكن هل هو مستطيع أن يعاود حضارته، ليضطلع بأعبائها من جديد، وليمثل للناس صورة جديدة من الثقافة والحضارة، منطبعة بطابع شخصيته الإسلامية، ومنبثقة عن المبادئ الاعتقادية الإسلامية، التي انبثقت عنها الصورة الماضية التي عرفها التاريخ من ثقافة الإسلام وحضارته؟ إن نهضة اليابان ليست بوذية، ولا نهضة الصين نهضة كونفوشية، ولا نهضة اليونان نهضة بيزنطية، ولا أفلاطونية، ولا أرسطوطاليسية، بل ولا هي يونانية على الحقيقة بأي حال من الأحوال. فهل سيكون شأن الإسلام مقصوراً على هذا الوضع؟ أو أن حضارة إسلامية الروح، وثقافة إسلامية الطابع، ستبدوان من بين ذلك القدر المشترك المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية، الناهضة المستقلة؟ إن روح تلك الحضارة هي الموقع الرئيسي للمشكلة».

تلك بعض من قضايا وأفكار ومحاور المعضلة التي حار ويحار فيها المصلحون، روح الحضارة الإسلامية، التي صنعت وميزت الحضارة والثقافة في عصور النشأة والازدهار، وموطن الخلل الذي جعل الحضارة تتراجع، والثقافة تتهلهل. والحل والمخرج من هذا المأزق الحضاري الذي تعيشه أمة الإسلام.

(*) كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

# انتصار القيم الإنسانية في الفتوح الإسلامية

## وثيقة «غَلَطه» أنموذجًا



عوني عمر لطفي أوغلو*

سطعت شمس الإسلام على الأرض عدلاً وسماحةً ورحمةً لينقل البشـرية نقلة نوعية من مرحلة إلى مرحلة؛ فما كان من «الوجدان الإنساني والمفاهيم العقلية والقيم البشرية» قبل الإسـلام وبعده أمران مختلفان! فقد ارتقى النوع الإنساني من حال الانحطاط والتدهور أسـفل فأسفل، إلى حال التعالي والتسامي أعلى فأعلى. ولما أشرعت جيوش الإسلام في المشرق والمغرب أسـنة رماحها، وأشهرت سيوفها، لم تخرج أَشَراً ولا بطراً؛ بل ترسيخاً للقيم والمثل، ونشراً للرحمة والنبل والتسامح. فلم تشع السيوف بشهوة المطامع، ولم تقعقع من أجل معارك جوفـاء، بل لإعلاء كلمة الله، الذي أنـزل علينا كتاباً يأمرنا فيه بإطلاق حرية الضمير، والتعايش مع هذه الحرية، بشـرط توقير حرية المسـلم ومعتقده. فلم يزين لنا ديننا سفك الدماء بغريزة الحقد على الباطل، أو حتى الثأر من المعتدي. ومشهورٌ ذاك الخيار (متى لزم القتال) بالإسـلام، ليخلّي إرادة الإنسان حين تقبله القلوب بفطرتها؛ أو بالجزية، إقراراً لتوقير هذا الدين الذي يطلق العدل من عقالاتـه؛ أو القتال حتى لا تكون فتنة تمسك بتلابيب الضمائر البشرية. إذن القتال في الإسلام ينبض بنبضات حرية الضمير وانطلاق العدل وضمان المعتقدات على نقيض ما شهدت البشـرية في الحروب، وحتى في هذا العصر الموصوف بالتنوير!

ديننـا لا ينهانا عن أن نَبَرَّ مـن لم يقاتلنا -فيكون قد قاتل العقل والحرية والقيم الإنسـانية- وإن كان مشركاً. فغاية ما

يريده المسلم أن يُوَقِّر هذا الدين، ويُوَقِّر إيمانه، وحريته في الدعوة إليه. هذا هو شرطه ليعايش الملل والنحل. ولا يقلقن غير المسلم على معتقداته، إذ يضمن المسلم شرط توقير دينه. ذلك بأن حقوق غير المسلم مكفولة في دينه بقواعد يتعبد بها المسلم ولا يملك دونه فكاكاً، على خلاف ما عند غيره! وإذ يسعى المؤمن لإعلاء كلمة الله وتوقير دينه، يملأ فراغاً لا يمتلكه غيره. فغيره مضمون بضمان دين المسلم، وليس العكس صحيحاً! وضمان المسلم لحرية معتقدات الملل الأخرى محكوم بقواعد شرعية مرعية في الحرب والسلم. ومهما كان حكمه عقيدياً في تلك المعتقدات، فهو مأمور بالتعايش معها، والتسامح والوفاء والحسنى في الأخذ والعطاء وإقرار حرية العبادة حتى من موقع التحكم والقوة، وإن كان يرى بطلانها وشططها وزيغها. فالقوة والمكنة لا تبيح له التسلط على الضمائر والإكراه في الدين. والإسلام ضمان لذلك، وليس للمسلم في غير الإسلام ضمان لدينه. فمن هنا يتولد شرط توقير الإسلام والسعي في ذلك بمختلف الوسائل.

وهذه الوثيقة التي تنشر بالعربية -لأول مرة حسب علمي- واحدة من الشواهد على ما قلتُه آنفاً. فهي عهد من محمد الفاتح لذميّي «غَلَطَه». وغلطه حي على الضفة الشمالية لخليج القرن الذهبي في مواجهة أسوار إسطنبول القديمة، على مرمى حجر منها. ويقوم بين ضفتيها جسر في الموقع معروف. وهي التي ذكرت باسم (غلاطية) في رسالة بولص الرسول في العهد الجديد -السفر الرابع- الإصحاح السادس عشر. وكانت حائزة على أهمية تجارية وعسكرية منذ عهد البيزنطيين. فقد سورها قسطنطين الأول (٣٢٤-٣٣٧م) بسور. وسماها ثيوبودرس الثاني (٣٧٩-٣٧٥م) بهذا الإسم نسبة إلى سكانها في أرجح الآراء. وقد أقام الجَنَويّون برجها الشاخص حتى اليوم في عهد تباروس (٥٧٨-٥٨٢م). وتناوب الجَنَويّون والبنادقة الهيمنة على تجارها وأسواقها. وكانت بينها وبين العثمانيين اتفاقات لتسهيل شؤون التجارة قبل الفتح ومنذ سنة ١٣٨٧م. وتدل المصادر على أن الجَنَويّين أرادوا حماية مصالحهم بلزوم الحياد، وأظهروا هذه الإرادة إبان فتح إسطنبول سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. ومن أجلها ضمنوا عهد الأمان هذا من السلطان محمد الفاتح.

### حول مضمون الوثيقة

ومن المفيد أن نقدم الوثيقة بملاحظات وجيزة تتعلق بشيء من شؤونها:

١-إنها وثيقة مهمة تبرز مباديء في القانون الدولي الإسلامي وحقوق الحرب. وتبرهن أيضاً على ثبات العمل بهذه المباديء والإلتزام بها على مرّ العصور. نقول ذلك استناداً إلى المقارنة بين نصوص هذا العهد وبين نصوص عهد الأمان لأهل إيلياء (القدس) التي أعطاها عمر بن الخطاب ﷺ. فمعاني كلا العهدين متماثلة إلى درجة إقتران نص بنص، مع تفاوت الزمان بينهما. فتاريخ الوثيقة العُمَرية في سنة ١٥ هـ، وتاريخ هذه الوثيقة في سنة ٨٥٧هـ. وبينهما ٨٤٢ سنة هجرية! لكن مبادئ القانون النافذة منذ فجر الإسلام إلى هذا التاريخ واحدة لم تتبدل، وملتزَم بها ومرعية، وليست سطوراً مسطورة في الكتب، بل واقعاً قائماً وحياة شاخصة. وأحسبها اليوم أيضاً جديرة بالإحياء بالتأمل في حاجة البشرية إلى الوجدان الصادق الذي تتولد من هذه المبادي.

٢-إنها وُقِّعَت في أحوال الحرب، والحرب تثير نوازع النفس إلى العدوان والتجاوز. فرعاية الحقوق والالتزام بالمبادئ أشق في هذه الأحوال. إذ إن القائد المنتصر في أوج الشباب وفي سنّه الثالث والعشرين، وعلى رأس جيش جرار من مائة ألف مقاتل شديد البأس صار أسطورة في التاريخ، واستحق هو وقائده مديح النبي ﷺ وبشارته، وأسقط أمنع مدينة في عالم ذلك الزمان بعد كفاح مرير دام أشهراً، فهو ينتظر عطاءات النصر الذي يدوّخ الرؤوس ويطيش بالعقول. وغلَطه أو (غلاطية) يسيرة المنال أمام هذا القائد وجيشه الذي قوض في حياته إمبراطوريتَين وأربع ممالك وإحدى عشرة إمارة ودوقية، وهي الضيعة الغنية بالأموال والأنفس. لكن القائد أمسك بزمام نفسه، ولم يهتز أمام الهوى والطمع، وآثر لزوم مبادئ الدين الحنيف الذي يأمر بالعدل والإحسان. فهذا العهد يكتسب قوة معنوية أعظم في الدلالة على خُلُق الإسلام وسماحته وعمقه في ضمير المسلمين.

٣- إنها كتبت بالرومية -وليس بالتركية- في أصلها. وقد ختم السلطان بختم توقيعه على أصلها الرومي تسكيناً لخواطر أهل «غَلَطه» الهائجة. فكأنهم لا يصدقون أن يعامَلوا بمثل هذا السماح والعدل في تلك الأهوال من الأحوال. فزادهم محمد الفاتح بالتوقيع على الأصل الرومي تطميناً لهم. ولذلك تجد في هذا العهد ألفاظاً من القسَم هي أقرب إلى ألفاظهم ومفاهيمهم للتغليظ عليه في اليمين. ولم يجد الفاتح بأساً فيها -مع فهمه للرومية في قول- ما دام القصد تسكين خواطرهم.

وهذه ترجمة الوثيقة:

## عهد إلى ذميّي «غَلَطَه» [1]

هذا عهد ذميي «غَلَطَه». أُعطي العهد لـمّا فتح أبو الفتح السلطان محمد خان إسطنبول. كُتب بالرومية وختمه السلطان بالطغراء.

أنا السلطان الكبير والشاه العظيم السلطان محمد خان بن السلطان مراد. أُقسم بالله خالقِ السموات والأرض، وبحقّ روحِ حضرةِ الرسول عليه الصلاة والسلام الطاهرة المنورة المطهرة، وبحق المصاحف السبع، وبحق روح جدي، وبحق روح أبي، وبحق حياتي، وبحق حياة أولادي، وبحق السيف الذي أتمنطقه، إذ يُرسل أهل «غَلَطَه» وناسُها مفتاحَ القلعة المذكورة طلباً للسلم، إلى عتبتي العُليا، مع «بابلان براويزين» و«ماركيز ده فرانكو» وترجمانهم «نيكوروز بابوهو» معلنين الطاعة والانقياد لي، فإني:

١. قبلت أن يقيموا عباداتهم (طقوسهم) وأركانهم على الوجه الجاري حسب الأسلوب القديم القائم في عاداتهم وطقوسهم، وأن لا أُهاجمهم لهدم وتخريب قلعتهم.

٢. وأَمَرتُ أن يُقرّ في أيديهم أموالُهم وأرزاقُهم وأملاكُهم ومخازنُهم وبساتينُهم وطواحينُهم وسفنُهم وقواربُهم وعمومُ أمتعتهم ونساؤهم وأولادُهم وعبيدُهم وإماؤهم، ولا أتعرّض إلى شيء، ولا أُكرِهُهُم على شيءٍ في ذلك.

٣. وعليهم أن يعملوا، ولهم أن يسافروا برّاً وبحراً مثلما في سائر ممالكي، فلا يَمنَعهم أو يزاحمهم أحد، وأن يُؤَمَّنوا ويَسْلَموا.

٤. وأنْ أَضع عليهم الخراج يؤدونه عاماً بعد عام مثل غيرهم. وأن أرعاهم بنظري الشريف فأحميهم مثل ممالكي الأخرى.

٥. وأن تكون كنائسهم مُلكَ أيديهم ويقرأوا حسب طقوسهم، ولكن لا يَدُقّوا جرساً أو ناقوساً، وألاّ أستولي على كنيسةٍ لهم لأجعلها مسجداً، وهم لا يبنون كنيسةً جديدة.

٦. وأن يُقبِل أو يغادر تجارُ جَنَوة بحراً وبرّاً، ويدفعوا جُمركهم على العادة الجارية، ولا يعتدي عليهم أحدٌ.

٧. وأمرت ألا يُشغّل دُورهم صقّارٌ أو خادم، وأن يَسلَم ويُعفى أهلُ القلعة المذكورة وتجارها من عملِ السخرة.[2]

ليعلموا على هذا الوجه ويعتمدوا علامتي الشريفة.

تحريراً في أواخر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

---

(*) كاتب وباحث تركي.

الهوامش:

(١) متون القوانين العثمانية وحكم الشرع فيها، أحمد آق كندوز، ٤٧٨/١.

(٢) الصقارون: صنف من الجيش العثماني. والمقصود بالخادم أو العبد في المصطلحات العثمانية: الموظف المكلف بخدمات الدولة في درجات الوظائف كافة مدنية وعسكرية. وعمل السخرة من الأعمال المفروضة لإنجاز بعض المصالح العامة للدولة من غير أجر، كضريبة مالية مقررة لغرض سد احتياجات الدولة والجيش، وتخفيفاً للعبء المالي عن كاهل الرعية في البلاد المفتوحة، وبدلاً عنها.




أ.د. زغلول النجار *

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء، والمكفوف عن اليابسة، وهو معنى صحيح من الناحية العلمية صحة كاملة كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين. ومن المعاني اللغوية لهذا القَسَم القرآني المبهر أيضا أن البحر قد أوقد عليه حتى حمي قاعه فأصبح مسجورا، وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المتأخرة من القرن العشرين، والتي لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبدا، وهذا ما نفصّله في الأسطر التالية:

**البحر المسجور: المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة**

الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي ١٣٦٠ إلى ١٣٨٥ مليون مليون كيلو متر مكعب، وهذا الماء قد أخرجه ربنا ﷻ كله من داخل الأرض على هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين، وعبر صدوع الأرض العميقة ليصادف الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيّرات الجوية والذي يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع حوالي ستة عشر كيلو مترا فوق خط الاستواء، وحوالي العشرة كيلو مترات فوق قطبي الأرض، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مِئويّة تحت الصفر في قمته.

وهذا النطاق يحوي حوالي ثلثَي كتلة الغلاف الغازيّ للأرض والمقدرة بأكثر قليلا من خمسة آلاف مليون مليون طن، وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض، والذي تتكون فيه السحب، وينزل منه كلّ من المطر والبرد والثلج، وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق، وتتكون العواصف والدوامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوّية. ولولا تبرد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبدا. وحينما عاد إلينا بخار الماء مطرا وثلجا وبردا، انحدر على سطح الأرض ليشقّ له عددا من المجاري المائية، ثم فاض إلى منخفضات الأرض الواسعة ليكوّن البحار والمحيطات. وبتكرار عملية التبخر من أسطح تلك البحار والمحيطات ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمّعات المائية والكائنات الحية بَدَأت دورة المياه حول الأرض، من أجل التنقية المستمرة لهذا الماء وتلطيف الجوّ وتفتيت الصخور وتسوية سطح الأرض وتكوين التربة وتركيز عدد من الثروات المعدنية، وغير ذلك

من المهام التي أوكلها الخالق لتلك الدورة المعجزة التي تحمل ٣٨٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب من ماء الأرض إلى غلافها الجوي سنويا، لتردها إلى الأرض ماءً طهورا؛ منها ٣٢٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب تتبخر من أسطح البحار والمحيطات، و ٦٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب من أسطح اليابسة؛ يعود منها ٢٨٤,٠٠٠ كيلو متر مكعب إلى البحار والمحيطات، ٩٦,٠٠٠ كيلو متر مكعب إلى اليابسة التي يفيض منها ٣٦,٠٠٠ كيلو متر مكعب من الماء إلى البحار والمحيطات، وهو نفس مقدار الفارق بين البخار والمطر من وإلى البحار والمحيطات.

هذه الدورة المحكمة للمياه حول الأرض أدّت إلى خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها حوالي ٩٧,٢٪، وإبقاء أقله على اليابسة حوالي ٢,٨٪. وبهذه الدورة للماء حول الأرض ملحت ماء البحار والمحيطات، وبقيت نسبة ضئيلة على هيئة ماء عذب على اليابسة (٢,٨٪ من مجموع كم الماء على الأرض)؛ وحتى هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حبس أغلبها (من ٢,٠٥٢٪ إلى ٢,١٥٪) على هيئة سُمك هائل من الجليد فوق قطبَي الأرض وفي قمم الجبال، والباقي مختزَن في الطبقات المسامية والمنفذة من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء تحت سطحي (حوالي ٠,٢٧٪ إلى ٠,٥٪)، وفي بحيرات الماء العذب (حوالي ٠,٣٣٪)، وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض (من ٠,٠١٪ إلى ٠,١٨٪)، ورطوبة في الغلاف الغازي للأرض تتراوح بين (٠,٠٠٠١٪ إلى ٠,٠٣٦٪)، وما يجري في الأنهار والجداول (حوالي ٠,٠٠٤٧٪).

وتوزيع ماء الأرض بهذه النسب التي اقتضتها حكمة الله الخالق قد تم بدقة بالغة بين البيئات المختلفة بالقدر الكافي لمتطلبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات، وبالأقدار الموزونة التي لو اختلّت قليلا بزيادة أو نقص لغمرت الأرض وغطت سطحها بالكامل، أو انحسرت تاركة مساحات هائلة من اليابسة، ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها.

ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المتجمّع فوق قطبَي الأرض وفي قمم الجبال المرتفعة فوق سطحها إذا انصهر (وهذا لا يحتاج إلا إلى مجرّد الارتفاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي خمس درجات مئوية) فإنّ كم الماء الناتج سوف يؤدي إلى رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات إلى أكثر من مائة متر فيغرق أغلب المناطق الآهلة بالسكان والممتدة حول شواطئ البحار والمحيطات. وليس هذا من قبيل الخيال العلمي، فقد مرت بالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمرا لليابسة من حدود شواطئها الحالية، كما مرت فترات أخرى كان منسوب الماء في البحار والمحيطات أكثر انخفاضا من منسوبها الحالي مما أدى إلى انحسار مساحة البحار والمحيطات وزيادة مساحة اليابسة. والضابط في الحالين كان كمّ الجليد المتجمع فوق اليابسة، فكلما زاد كمّ الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات فانحسرت عن اليابسة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة، وكلما قلّ كمّ الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت على اليابسة التي تتضاءل مساحتها تضاؤلا ملحوظا.

من هنا كان تفسير القَسَم القرآني بـ«البحر المسجور» بأن الله تعالى يمن علينا -وهو صاحب الفضل والمنة- بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات، وحَجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان على اليابسة منذ خلق الإنسان، وذلك بحبس كمّيات من هذا الماء في هيئات متعددة أهمها ذلك السمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وعلى قمم الجبال، والذي يصل إلى أربعة كيلومترات في قطب الأرض الجنوبي، وإلى ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي، ولولا ذلك لغطّى ماء الأرض أغلب سطحها، ولَما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية والحيوانية والنباتية وهي إحدى آيات الله البالغة في الأرض، وفي إعدادها لكي تكون صالحة للعمران.

من هنا كان تفسير القَسَم بـ«البحر المسجور» بمعنى المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، وتشهد لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

**البحر المسجور: القائم على قاع أحمته الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض**

في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكة هائلة من الصدوع العملاقة المزدوجة والتي تكون فيما بينها ما يعرف باسم أودية الخسف أو الأغوار، وأن هذه الأغوار العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة، ويُشبّهها العلماء باللحام على كرة التنس (مع فارق التشبيه)، وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلو مترات، ولكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض، وفي قيعان عدد من بحارها، ويتراوح عمق الصدوع المشكلة لتلك الأغوار بين ٦٥ كيلومترا، و ٧٠



كيلومترا تحت قيعان البحار والمحيطات، وبين ١٠٠ و١٥٠ كيلومترا على اليابسة (أي في صخور القارات)، وتعمل على تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتقطيعه إلى عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسمّيه العلماء باسم نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لَدن، عالي الكثافة واللزوجة، تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى حيث تتبرد وتعاود النزول إلى أسفل، وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلى التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه (في ظاهرة تسمى ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات)، ومصطدما في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ليكون سلسلة من السلاسل الجبلية، ومنزلقا عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين.

وباستمرار تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض تتّسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها، وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدى الألف درجة مئوية لتساعد على دفع جانبي المحيط يمنة ويسرة، وتملأ المسافات الناتجة بالصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض على هيئة ثورات بركانية عارمة، تحت الماء، تسجر قيعان جميع محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها، وتجدد مادتها الصخرية باستمرار.

وقد أدى هذا النشاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات، وفوق قيعان عدد من البحار النشطة إلى تكون سلاسل من الجبال في أواسط المحيطات تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية، وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن على هيئة أعداد من الجزر البركانية من مثل جزر كل من أندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، اليابان، هاواي، وغيرها.. وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المقابلة لمناطق اتساع قيعان البحار والمحيطات، ويؤدي هذا التصادم إلى اندفاع قيعان المحيطات تحت كتَل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلى تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميات هائلة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة التي تطوى وتتكسر لترتفع على هيئة السلاسل الجبلية على حوافّ القارات من مثل سلسلة جبال الإنديز في غربي أمريكا الجنوبية، وهنا يستهلك قاع المحيط بالتدريج تحت الكتلة القارية، وإذا توقفت عملية توسع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يستهلك بأكمله تحت القارة مما يؤدي إلى تصادم قارتين ببعضهما. وينشأ عن هذا التصادم أعلى السلاسل الجبلية من مثل جبال الهيمالايا التي نتجَتْ عن اصطدام الهند بالقارة الأسيوية بعد استهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة أرضية سحيقة.

ويصاحب كلاً من عمليتَي توسع قاع المحيط في محوره الوسَطي، واصطدامه عند أطرافه عددٌ من الهزّات الأرضية، والثورات والطفوح البركانية.

ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من أربعة وستين ألفًا من الكيلومترات في الطول، بينما يبلغ طول الصدوع العميقة التي اندفعت منها الطفوح البركانية لتكون تلك السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات أضعاف هذا الرقم. وتتكون هذه السلاسل

أساســا من الصخور البركانية المختلطة بالقليل من الرسوبيات البحرية، وتحيط كل سلسلة من هذه السلاسل المندفعة من قاع المحيط بواد خسيف (غور) مكوّن بفعل الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخريّ للأرض بعمق يتراوح بين خمسة وستين كيلو مترا وسبعين كيلو مترا ليخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامـــل ويصل إلى نطاق الضعف الأرضـــي الذي تندفع منه الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجة حرارة تزيد عن ألف درجة مئوية لتسجر قيعانَ كل محيطات الأرض، وقيعانَ عدد من بحارها النشطة باستمرار.

وهذه الصـــدوع العملاقة التي تمزق قيعـــان كل محيطات الأرض، وقيعـــان عدد من بحارها (مثـــل البحر الأحمر) توجد أيضا على اليابســـة، ولكن بنسب أقل منها فوق قيعان البحار والمحيطـــات. وتعمل على تكوين عدد مـــن الأغوار (الأودية الخسيفة) والبحار الطولية (من مثل أغوار شرقي أفريقيا والبحر الأحمر) التي تعمل على تفتيت الكتل القارية باتساعها التدريجي لتتحول تلك البحار الطولية مثـــل البحر الأحمر إلى بحار أكبر ثم إلى محيطـــات تفصل بين الكتلة القاريـــة التي كانت متصلة على هيئة قارة واحدة. وتحاط تلك الخســـوف القارية العملاقة بعدد من القمم البركانية الســـامقة من مثل جبل «أرارات» في شـــرقي تركيا، ومخروط بركان «إتنا» في شمال شرقي صقلية، ومخروط بركان «فيزوف» في خليـــج نابولي بإيطاليا، وجبل «كيليمنجارو» في تنجانيقا (٥٩٠٠ متر)، وجبل «كينيا» في جمهورية كينيا.

بذلك ثبت لكل من علماء الأرض والبحار -بالأدلة المادية الملموســـة- أن كل محيطات الأرض (بمـــا في ذلك المحيطان المتجمدان الشـــمالي والجنوبي)، وأن أعـــدادا من بحارها (من مثل البحر الأحمر)، قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وتتركز هذه الشـــبكة من الصدوع العملاقة أساســـا في قيعان البحار والمحيطـــات، وأن كمّ المياه في تلك الأحـــواض العملاقة -على ضخامته- لا يســـتطيع أن يطفيء جذوة الصهـــارة الصخرية المندفعة مـــن داخل الأرض إطفاء كامـــلا، وأن هذه الجذوة على شـــدة حرارتها (أكثر من ألف درجة مئوية) لا تســـتطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل، وأن هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهارا للعلماء في زماننا، وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين.

ومن الغريب أن رســـول الله ﷺ -هذا النبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرة واحدة، فضلا عن الغوص إلى أعماق البحار- قال في حديث شريف: «لا يَركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في ســـبيل الله، فإنّ تحتَ البحر نارا، وتحت النار بحرا» (سنن أبي داود). وجاء الحديث في مصنف ابن أبي شيبة بالنص التالي: «إن تحت البحر نارا، ثم ماء، ثم نارا».

ويعجب الإنسان المتبصر لهذا السبق في كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشـــريفة بالإشـــارة إلى حقيقة من حقائق الأرض التي لم يتوصل الإنسان إلى إدراكها إلا في نهايات القرن العشرين. هذا السبق الذي لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدرا غير الله الخالـــق الذي أنزل هذا القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورســـله، وعلّم هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ من حقائق هـــذا الكون ما لم يكن لأحد من الخلـــق إلمام به قبل العقـــود الثلاثة المتأخرة من القرن العشـــرين، لكي تبقى هذه الومضات النورانية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ شهادات مادية ملموسة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي حفظه ﷻ على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد، وإلى قيام الساعة بنفـــس لغة الوحي (اللغة العربية) كلمة كلمة، وحرفا حرفا في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، دون أدنى تغيير أو تبديل أو تحريف، وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم عليه أفضل الصلاة وأزكى التســـليم كان موصولا بالوحي ومعلّما من قِبَل خالق السماوات والأرض.

فســـبحان الذي أنزل في محكم كتابـــه من قَبْل ١٤٠٠ من الســـنين هذا القَسَـــم القرآني بـــ«البحر المسجور»؛ وسبحان الذي علم خاتم أنبيائه ورسله بهذه الحقيقة فقال قولته الصادقة: «إن تحت البحر نارا، وتحت النار بحرا»؛ وســـبحان الذي أكد على صدق القرآن الكريم، وعلـــى صدق هذا النبي الخاتم ﷺ في كل مـــا رواه عن ربه، فأنزل في محكـــم كتابه قوله الحق: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصّلت: ٥٣).

(*) أستاذ علم الأرض – مصر.

# الإنسان محور التنمية

## في المنهج القرآني

أ.د. محمد بن موسى باباعمي*

أ أوّل ما يتبادر إلى ذهن الباحث وهو يعيد النظر في «مناهج التنمية في القرآن الكريم»، أهمية الموضوع وخطورته، ثم شموليته لجوانب الحياة جميعها، ولتخصصات العلوم دون استثناء، من جهة؛ وهو من جهة أخرى موضوع دقيق ومركّز؛ وبخاصة إنّه يتناول «الشكل والمنهج» لا «الموضوع والمحتوى»، وبالذات في القرآن الكريم، دون غيره من مصادر التشريع الإسلامي، مثل السنة والإجماع.

### الإسلام والتنمية

ولسائل أن يسأل: «ما الحكمة من كون مناهج التنمية في القرآن الكريم ومفاهيمها الأساسية وصيغها وأسباب انعدامها وكلّ المحاور المرتبطة بها، غيرَ مبينة في سورة واحدة، أو تحت عنوان واحد، بل هي مبثوثة في كامل القرآن الكريم، بصيغ مختلفة، وصور متباينة؟».

لا شكّ أنّ القرآن الكريم كتاب «حياة»، وليس من طبيعة الحياة التجزؤ ولا الانحياز، فالحديث عن التنمية حديث عن جوانب «الحياة» كلها. التربوية منها والاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية. ومجرّد حشر التنمية تحت عنوان واحد أو سورة واحدة خروج عن المنهج الأمثل في التعامل مع هذا الموضوع الخطير.

وبالتالي، فإنّ «شمولية التنمية وتكاملها» هي أبرز سمة من سمات التنمية في القرآن الكريم. فمنهج معالجتها ينبغي أن يكون بالتبع منهجا شموليا متكاملا، ولا يفهم من هذا -بالطبع- أن يغرّق الموضوع في عموميات لا نهاية لها، ولا أن ينظر إليه على أنه مرادف لكلّ المواضيع؛ يأخذ منها ويرجع إليها، حتى وإن كانت بعيدة؛ ذلك أنّ مثل هذا التعميم كفيل بتضييع المنهج والمبنى، وإفساد المقصد والمعنى.

والقرآن في عرضه لمختلف مجالات التنمية وأنواعها «دقيق» كلّ الدقّة، «واضح» غاية الوضوح، لا لبس فيه ولا إبهام، فمن ذلك مثلا قوله تعالى، في الحديث عن التنمية الزراعية: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٣٣-٣٥) فالآية أبرزت حدود عمل الله تعالى، ولم تُلغ عمل الإنسان وجهده وعلمه، شأنَ بعض الفهوم الخاطئة لسنن الكون؛ ذلك أنّ نتاج الإنسان من أسباب الازدهار المنشود، وأنّ عملَه من مقدّمات التنمية الحقّة؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، أي ليأكلوا مما عملت أيديهم وهو الغروس والحروث التي تعبوا فيها.

ثم إنّ «الشكر» كذلك سبب من الأسباب ومقدّمة من المقدّمات، وبالتالي؛ فإنّ الشطر الأول -أي العلم والعمل- مفهوم وواضح لدى كلّ الشعوب والمجتمعات، حتى وإن كانت كافرة أو ملحدة، أمّا الشطر الثاني فيحمل إضافة بارزة وبديعة، ألا وهي: «شكر النعمة»، وهنا يتضح الفرق الجوهري بين المنهج القرآني والمناهج الفكرية الأخرى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم:٧) وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ (يس:٧١-٧٣). وما غاص باحث في آية من آيات التنمية في القرآن الكريم إلاّ وبهرته هذه «الدقة» وذلكم «الوضوح»، فهذه سمة ثانية من سمات منهج القرآن في معالجته لموضوع التنمية.

من هنا نسجّل أنّ أبرز السمات في المنهج القرآني للتنمية أربعة، هي: «الشمولية» و«التكامل» و«الدقة» و«الوضوح».

و«التنميـــة» من مدخلها الاقتصـــادي مرحلة متطوّرة تأتي بعد مرحلة النمو الاقتصادي، الذي يعني ارتفاع النســبة المئوية للإنتاج العام مقاســاً بالأســعار الثابتة، أي الارتفاع الحقيقي للدخل القومي. إذن يمكن للبلد الذي يعتمد اقتصاده على إنتاج وتصدير النفط والغاز والفحم والقهوة أو الحديد، أن يحقق نمواً اقتصادياً عن طريق رفع إنتاج هذه المواد (طبعاً شــريطة أن لا تنخفض أسعار هذه المواد في الأسواق العالمية). لكنّ هذا النموّ السريع، وغير الثابت لا يؤدّي بالضرورة إلى التنمية الاقتصادية، التي تعرَّف من خلال ثــلاث مصطلحات: «الخطّة، والدخل القومي الحقيقي، والأجَل الطويل».

فـ«التنمية الاقتصادية» لا ينبغـــي أن تُفهم على أنها تغيّر كماليّ ســطحي مرحليّ عابرٌ يقتصر علـــى عنصر معين من عناصر التنمية، إنما هي «خطّة» معقدة ومتشـــابكة تستهدف تغييرا جوهريا في البنيان الاقتصادي، يمتد ليمسّ كافة العلاقات الاقتصادية، ويســـفر عن رفع معدل الإنتاجيـــة بقدر كفاءة استخدام الموارد القومية والعالمية والمستوى التكنولوجي المتاح.

### عناصر التنمية في القرآن الكريم

يصعب حصر جميع عناصر التنمية الواردة في القرآن الكريم، لكنّ عملية مسحية أولية تُبرز لنا عددا منها، ولعلّها هي الأهم، وهي على التوالي: رأس المـــال، والثروات الطبيعية والآلية (أو التكنولوجيا كما تعرف اليوم) والإنســـان والشـــكر والوقت والغيب والإدارة والتخطيط والعلم والعمل وتوجيه الطاقة.

لا شكّ أننا لو حاولنا تصنيف هذه العناصر تصنيفا منهجيا، فسنجد أنها تنقسم إلى محاور ثلاثة هي:

الموارد: وتتمثل في رأس المال، والثروات الطبيعية، والوقت.

الغيب: ويتمثل في مشيئة الله تعالى وقدرته، وفي شكر نعمه.

الإنســـان: ويندرج ضمنه كلٌّ مـــن الإدارة، والتخطيط، والعلم، والعمل، وتوجيه الطاقة.

نركّز هنا على «محورية الإنســـان في التنمية، بناء على المنهج القرآني»، وسننطلق من نماذج بلغت الذروة في التنمية، ونستنبط منها هذه العناصر، حســـب السياق، مع مراعاة أصول التفسير وقواعده. وبنفس الطريقة يمكن أن يتم التعامل مع نماذج أخرى: والعناصر هي كالآتي:



### عناصر التنمية في قصة ذي القرنين

في قصـــة ذي القرنين التي جاءت مفصّلة في أواخر ســـورة الكهف، نجد عناصر التنمية الأساسية واردة بصيغ مختلفة، وهي من أفضل النماذج التي تلج بنا إلى هذا الموضوع. فمن ذلك أنّ ذا القرنين لما بلَغ ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ (الكهف: ٩٣) أي بين الجبلين، وجد قومًا ﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ (الكهف: ٩٣) وهو الذي مكّن الله تعالى له، وآتاه من كلّ شيء سببا.

وهنـــا نلاحظ التقابل بين قوم ينتمـــون إلى مجتمع غير نام، ورجل عظيم جـــاء من محيط نام، فالقـــوم متصفون بصفات الضعف والوهـــن، والتخلف والجهل، ولم يقـــدروا على ردّ يأجوج ومأجوج الذين تســـلّطوا عليهم وأفسدوا أرضهم. أمّا ذو القرنين فقد بلغ ذروة التنمية، فمكّن الله تعالى له في الأرض، وآتاه من كلّ شـــيء سببا، أي «سلطانا وطيد الدعائم، ويسّر له أسباب الحكم والفتح، وأســـباب البناء والعمران، وأسباب الســـلطان والمتاع... وسائر ما من شأن البشر أن يمكّنوا فيه في هذه الحياة».

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٥) أي سخّر ما وُهب له من النعم في خدمـــة غايته وهدفه، ولم يضيع ذلك هباء. ومن المؤكد في

علم الإدارة أنَّ توجيه الطاقة وضبط الغاية وتحديد الأهداف هي أهمُّ مراحل التخطيط والتخطيط الاستراتيجي، من أجل تنمية مستدامة وشاملة.

والملفت للنظر أنَّ هؤلاء القوم كانوا يملكون المال، والدليل على ذلك قولهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ (الكهف: ٩٤)، وكانوا يملكون اليد العاملة، لذلك أمرهم ذو القرنين بقوله ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ (الكهف: ٩٥)، ثم قال لهم أوان بناء السد ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦)، ثم قال ﴿انْفُخُوا﴾ (الكهف: ٩٦)، ثم قال ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: ٩٦). غير أنَّهم يفتقرون إلى أهمِّ أسباب التنمية على الإطلاق؛ يفتقرون إلى تمكين الله تعالى وإلى العلم والتكنولوجيا والتخطيط وإلى وضوح الغاية والأهداف.

وقراءة أولية لواقع المسلمين اليوم، وتخلفهم عن سُلَّم الحضارة، وواقع الغرب وتمكنه، تجعلنا نفهم هذه الآيات فهما عميقا، وتُجلّي لنا المنهجَ القرآني في بناء تنمية شاملة، أساسها الإنسان الكفء والفعال، حتى وإن كان غير مالك للمادة والوسائل.

وهذا ما نقرؤه في المقارنة التي عقدها ذو القرنين بين «رأس المال المعبَّر عنه بالخرج» وبين «التمكين»، فقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (الكهف:٩٥). فرغم اختيار بعض المفسِّرين أنَّ هذا التمكين يقصد به المال واليسار إلاَّ أنَّ الصواب -والله أعلم- في توجيه معنى التمكين هو تقديمه للروح الإيمانية، والقدرة العلمية، وكذا التمكين التكنولوجي.

إذن، فـ«الإنسان» بكلِّ أبعاده هو محور التنمية في هذه الآيات.

### عناصر التنمية في قصة سليمان عليه السلام

لقد بلغ سليمان عليه السلام من التطور الحضاري، والتنمية في جميع المجالات، مبلغا لم يرْتقِ إليه أحد قبله، ولن يرتقي إليه أحد بعده؛ وما ذلك إلاَّ للعلم الذي آتاه الله تعالى، وامتنَّ به عليه، حتى برَّ أباه، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ١٦).

ولقد برز سليمان عليه السلام في مجالات العلم والمعرفة، مثل السرعة، وفهم لغة الطير، والقتال والحرب، وفنون الإدارة، والحوار والجدل، والسياسة، والعفو والصفح، والعدل والحكم... أي في كلِّ ما من شأنه أن يصنع حضارة مثالية شاملة متكاملة الجوانب، تفوق واقع الدول المتطورة اليوم بأشواط؛ ذلك أنَّها تملك التقنية والآلية، وتفتقر إلى العدل والروح والشكر والأخلاق، وتعدم القيم الحضارية غير المادية.

فالغرب يبني أسس تنميته على العلم وحده، ويعتقد أنَّ «من يملك العلم يملك القرار، هذا هو المستقبل، ومن تنقصه المعرفة تنقصه القدرة على اتخاذ القرار». أمَّا من حيث افتقاد الغرب للأسس القيمية فيقول المفكر مهاتير محمد: «وحسب تقييمنا، فإنَّ أية دولة لا تصبح دولة متقدِّمة إذا كانت غنية، ولديها التكنولوجيا، ولكن تنقصها القيم الأخلاقية. وهناك مجتمعات غربية كثيرة على سبيل المثال متفسخة أخلاقيا».

لكن المؤسف من جهة أخرى، أنَّ الدول الإسلامية تفتقر إلى جميع القيم الحضارية التي تعلي من شأن الإنسان، وهذه الأمم تناقض دينها وتسير في غير هدى؛ فلا هي تمتلك التكنولوجيا والعلم، ولا هي تتحكم في الأبعاد الإيمانية والأخلاقية؛ وسوف لن يغنيها نقل مناهج الغرب في التنمية حرفيا، لكن عليها أن تفرِّق بين الروح والشكل.

ولعلَّ السؤال المحير بحقٍّ هو «ما الذي دفع بسليمان عليه السلام إلى أن يسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده؟ أليس هذا من قبيل حرمان الناس من عطاء الله؟! والحقُّ أنَّ قول سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥)، يتجاوز حدوده البشرية، ويأتي ضمن المقاييس العليا؛ يأتي من العزيز الوهاب. ولعلَّ الحكمة من ذلك أنَّ الله تعالى جعل أعلى قمَّة في التمكن والرقي والملك، هي قمَّة شـاكرة للنعم، غير كافرة بالله تعالى، ولا متنكرة لنعمائه وآلائه؛ حتى لا يقول أحد بعد ذلك: «ما دمت أنا الأفضل والأقوى والأغنى... فإني لا أرى مبررا لأن أشـكر أحدا أو أعترف بإله». أما وإن سـليمان قد بلغ ما بلغ، وهو من الشاكرين، فإنَّ الحجَّة قد قامت على جميع الناس، دون استثناء.

من هنا نستنتج أنَّ السبب الأقوى من أسباب التنمية الحقَّة هو «الشـكر»، ولقد قال تعـالى عن آل داود: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُـكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سـبأ: ١٣) كما كان أبسـط موقف في الحياة يدفعه إلى الشـكر. وهذا ما حدث في قصَّة النملـة: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَـتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُـلَيْمَانُ وَجُنُـودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ (النمل: ١٨-١٩).

هذه نماذج من عناصر التنمية في المنهج القرآني، وهي جميعا مؤسسـة على محورية الإنسـان. والقرآن طافح بنماذج أخرى، تحتاج إلى دراسات وتحليل عميق؛ فمن ذلك مثلا: التخطيط، في قصة يوسـف عليه السلام، والتفاني والعمل في قصة موسى عليه السلام، واستثمار الوقت في مراحل السيرة النبوية الطاهرة لنبينا محمد ﷺ.

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة - الجزائر.


**المصادر:**

١- الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش (ترجمة محمد عدس)، مؤسسة بافاريا، ١٩٩٧م ألمانيا.

٢- الإسلام والتنمية الاقتصادية، محمد علي الحسيني، مقال في مجلة النبأ، عدد ٥٨.

٣- في ظلال القرآن، سيد قطب.

٤- التعليم العلمي والتكنولوجيا في إسرائيل، صفا محمود عبد العال، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢م القاهرة.

٥- صوت آسيا، مهاتير محمد، نشر دار الساقي، ١٩٩٨م لبنان.


## جدول تقديري حول عناصر التنمية

ثمَّة مفارقة محيِّرة هي:

- كون «الإنسان القرآني» إنسانا حقق جميع متطلبات الحضارة، حتى وإن ضعف أحيانا في الجانب الماديّ، إلاَّ أنَّه لا يتأثَّر، بل يؤسّس على الجانب الأهم.

- أنَّ «الإنسان المسلم» اليوم رغم كون القرآن يتلى بين ظهرانيه، إلاَّ أنَّه متخلف من جميع الجوانب، و لم يستفد من كتابه في بناء حضارة عالمية مشهودة.

- أنَّ «الإنسـان الغربي» اليوم حقَّـق انتصارات متوالية في الجانب المادي، وبنى مدَنية عالمية، غير أنَّه يفتقر إلى الأخلاق، والقيم، والشكر.

من هنا يجب أن تفكر البشرية اليوم في تنمية شاملة، وحضارة متكاملة، لا تشبه النمط الغربي كلية، بل يجب أن تبني على النموذج القرآني بأن يستفيد مما أنتجه الغرب من رقي، وتضيف إليه الروح والعمق.

| | الإنسان في الغرب | الإنسان المسلم المعاصر | الإنسان القرآني |
|---|---|---|---|
| الأخلاق | + − | + − | +++ |
| الإدارة | ++ | + − | +++ |
| البحث العلمي | ++ | − | +++ |
| التخطيط | ++ | − | +++ |
| التخطيط الاستراتيجي | + | − | +++ |
| التكنولوجيا | +++ | + − | +++ |
| توجيه الطاقة | + | − | +++ |
| رأس المال | +++ | ++ | ++ |
| الشكر | − | + | +++ |
| العلم | ++ − | − | +++ |
| العمل | ++ | + | +++ |
| استثمار الوقت | ++ | − | +++ |
| الموارد الطبيعية | + | +++ | ++ |
| المجموع | +٢٢<br>-٣ | +١٠<br>-٩ | +٣٦ |

رغم أنَّ هذا الجدول تقديـري قيَمي، يمكن مراجعته وتصحيحه؛ إلاَّ أنَّه يظهر مدى اكتساب الغرب للعناصر المادية والعلمية في التنمية، وتبين مدى افتقاره إلى الأسـباب الأخلاقية والإيمانية؛ أمَّا المسلمون اليوم فيضعفون في جميع الجوانب، غير أنَّ الإنسـان القرآني إنسـان متكامل الجوانب، قويٌّ ماديا، ومكين روحيا وأخلاقيا. فالذي تعدمه البشـرية اليوم هو هذا التوازن المفقود بين المادة والروح، بين الدنيوي والأخروي، بين العاجل والآجل.

# نمنمات على بوّابة العشق

حسن الأمراني *

شمس تبريز أشرقت في كياني ... فتجلّت عرائس في الجنان

أيُّ شمس أبهى وأعلى مقاماً؟ ... لا تقل: «والظلام ليس بفان»

فعلى الأفق من دماء الشهيدين ... بقايا.. فالأفق أحمر قان

سبّحِ اللهَ، مَنْ من الشجر الأخضر ... أذكى اللّظى مهيب الدخان

مسّت النايَ نارُ عشق فغنّى ... وبكى، فانتشى به الخافقان

كان قلبي من قبلِ مسّ لظاه ... حطباً يابساً جَلِيَّ الهوان

فاستوى كالشهاب يخترق الأفق ... ويدنو.. ويا نعيم الدّاني

وجع الناي شهقة ليس تبلى ... قد تلتها من عاشق زفرتان

هو صحو وسكرة.. وظلال ... ولهيب مقدّس الهيجان

إن برق الحجاز هيّج قلبي ... فهوى في قرارة الأحزان

فأقِلّوا العتاب يا أهل نجدٍ ... ما لنا في دفع الهموم يدان

قلتُ والحبُّ خير زاد المُعَنّى ... وجرت فوق وجنتي دمعتان

دُلّني! من أين الطريق إلى النور، ... فإني مشتّت الأذهان

قال: «إن الله اشترى» قلت: قلبي ... رضي البيع، قال: خذ عنواني

ومشى خطوة. فلما تجلّى ... خرّ موسى.. هل يدرك الثقلان؟

صعقة العشق زلزلت من سناها ... أضلع الطور فهو في خفقان

هو إن غصت فيه شلال نور ... وعطايا وجْد، ووحي بيان

أيّ كأسٍ سقت عروق المعنّى ... فهو في نشوة بديعُ المعاني

ألف ليلى جُنّتْ.. وألف سعادٍ ... ليس تدري الذي بجوف الدّنان

«أنت تغلو يا قيس» كلا! عيوني ... ما رأت غير بارئ الأكوان

وجه ليلى إشارة، وسناها ... قبسٌ فاض عن يد الرحمن

وأنين التّوبَاد ليس سوى تكبير ... عبدٍ أفضى بغير لسان

أوّبي يا جبالُ، فالطير حنّت ... وكؤوس الحنين صنو الحنان

وعلى درب العاشقين دماءٌ ... ودم العشق قبلة الحيران

حرّكتْ أوتارَ المحبة في الروح ... يدٌ جالت من وراء الجنان

والفراشات لم تزل تعشق النور ... وترضى الإبحار في النيران

حجبتني الأوزار عن رؤية النور ... وهدّت مسحاتها أركاني

والضعيف الضعيف من كان مثلي ... مثقل القلب، موهن البنيان

طاف قلبي دهراً فلما تداعى ... سقت رحلي إلى «بديع الزمان»

سيقول الغلاة إنك تغلو ... كيف يدري الخليّ فكّ المعاني؟

هيه يا نفسيَ الذليلة هوناً ... وخذي الحُكم من يد الحرمان

لا تمدّي عينيك.. رُبَّ خوان ... عرضَتْه.. يكون شرّ خوان

واهتفي: إنني ظمئت إلى النور ... فجدّد يا بارئي إيماني

أين من همة المحب إذا ما ... همتِ الكأس وانتشت شفتان

أين منها بيارق السلطان ... خافقاتٍ وصولة الصولجان

كل شيء يفنى وليس بباقٍ ... غيرُ نور المهيمن الدّيان ■

---

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة – المغرب.

# الفنّان المسلم

## بين النافع والجميل والأخلاقي

أ.د. بركات محمد مراد *

الفــن بالمعني العام هو جملة من القواعد المتبعة لتحصيل غاية معينة، جمالا كانت أو خيرا، أو منفعة، فإذا كانت هذه الغاية هي تحقيــق الجمال سمي بالفن الجميل، وإذا كانت تحقيــق الخير سمي بفن الأخلاق، وإذا كانت تحقيق المنفعة سمي الفن بفن الصناعة.[1]

وإننا نجد من خلال تعريف الفن وتصنيف الفنون والعلوم في العصور القديمة والوسطى أن التصور العام للفن ينطبق على الفــن التطبيقي والفن الجميل، وكان معنى «فن» تندرج تحته مجموعة كبيرة من الحرف والمهن والعلوم التي تتسم بسمة تطبيقية وعملية واضحة، وأنها وسيلة لمنفعة أو فائدة.

وهذا كان واضحا جــدا في الفنون والحرف الإســلامية عــبر كثير من عصورهــا. ورغم تبايــن المواقع الجغرافيــة فيهــا، فإننا لا نجد فيهــا تمييزا بــين كل من الفنون الجميلة والفنون التطبيقية، حيث كان كل منهما يؤدي وظيفة جمالية واضحة، ويقوم بتحقيــق منافع عملية وحياتية لا تنكر بالنســبة للفرد والأمة على السواء.

### الفن الجميل والفن النافع

ونجد أن «جويو»[2] يرى أن الفن نشاط «جدي وثيق الصلة بالحياة، فلا يمكــن أن تكون الأعمال الفنية مجرد مظاهر ترف أو موضوعات كمالية، بل هي ضرورات حيوية وأنشطة جادة وموضوعات نافعة، والموضوع النافع يولد بعض المشاعر الجمالية ليس لأنه نافع، بل لأنه في الوقت نفسه موضوع جميل».

وهــذا ما دفع «جون ديوي» إلى الربط بين النظر والتطبيق وبين الفن الجميل والفن النافع؛ إذ رأى أن أي فلســفة أو فهم للفن محكوم عليها بالفشــل إذا شيدا على أساس من الثنائيات الزائفــة بين الفن والطبيعة أو الفن والعلم، والفن الجميل والفن النافع.

ولكي يكشــف هذه الثنائيات الزائفة رأى ضرورة المضي نحو فهــم حقيقي للفن يدمج هذه الثنائيــات في وحدة. وقد كان حرصه علــي ربط الفن بالخبرة هو الذي جعله يقيم هذه العلاقة (أو الوحدة) بين النافع والجميل علي أساس أنهما يمثلان مظهرين من مظاهر النشــاط الإنساني الواحد. فالفنون الجميلة ذات أهميــة عملية، من وجهة نظر «ديوي» لا تقل عن بعض الصناعات التكنولوجية.

إذن فالفــرق بين العمل الفني والعمل الصناعي لا يرجع إلى خصائص محددة في العمل الفــني أو العمل الصناعي وإنما يرجع إلي نظرتنا نحن أو إلى موقفنا تجاهه، فقد يكون موقفــا عمليا تارة وموقفا

تأمليا جماليا تارة أخرى. وهذا يفضي بالطبع إلى أنه قد يمكن للآنية التي نشرب فيها أو الحذاء الذي نلبسه أن يتحولا إلي عملين فنيَين بمجرد أن نجعل منهما موضوعا للنظرة التأملية الجمالية.(٣)

### الفنون الإسلامية

وفي الحقيقة لم تعرف الفنون الإسلامية تلك التفرقة بين فنون جمالية وأخرى تطبيقية، فقد كانت كل الفنون في الحضارة الإسلامية تُراد لمنفعتها مثلما تراد لتحقيق غايات جمالية تساعد على تحقيق متعة بريئة للإنسان في مختلف تجليات حياته، تمثل هذا في صفحات المصحف الصغير الذي يقرأ فيه قرآنه أو في ذلك المسجد الكبير الذي يضمه للعبادة.

ولذلك عاش الإنسان المسلم فنونه، وتمثل هذه الفنون في كل وسائله الحضارية وأدواته اليومية، بل في أسلحته التي يستخدمها للحرب والقتال، ومسكوكاته المعدنية التي بواسطتها يحيا حياته الإقتصادية. ولا أَدلّ علي صحة هذا وصدقه من أننا نجد الطابع الجمالي والعبقرية الفنية واضحة وجلية في كل مقتنيات الإنسان المسلم في الحضارة الإسلامية، تجلى هذا واضحا في عمارة مدينته وبناء قصوره وحدائقه، وفي المنسوجات التي كان يرتديها، وفي السجاجيد التي كان يفترشها أو يلصقها على حوائط غُرفاته، أو في القوارير والآواني الزجاجية والفخارية التي كان يستعملها في حياته اليومية.

وقد تنوعت الفنون الإسلامية، وتغلغلت في كل مناشط الحياة المختلفة، ما بين تصوير وزخرفة ونسيج ونقش على الخشب، وتشكيل في الزجاج والخزف والفسيفساء وغيرها؛ فضلا عن الموسيقى. وهذا التنوع يعكس تعاظم المد الفني واتساقه مع المد الثقافي والاقتصادي، وتغلغل الفن في الصناعات المعروفة بالفنون الصغرى في الحضارة الإسلامية.

فاللباس والفرش والبسط والتحف والمشكاوات وأواني الطعام والشراب وغيرها كانت تكتسي قيمة جمالية أبدعتها قريحة الفنان المسلم؛ إذ لم تكن الزخرفة مجرد وسيلة لملأ الفراغ أو تغطية أشكالها، إنما هي أصول جوهرية لدقة الصناعة ومهارة الصنّاع، بدونها يعد الأثر الفني ناقصا.(٤)

### الفنون الحرفية

ومن المعروف أن الفنون الإسلامية أقرب إلى الحرف منها إلى الفنون المجردة، لمحاولتها تحقيق وظيفة إنشائية ونفعية في المقام الأول، إضافة إلى الصبغة الجمالية التي تسعى إلي تحقيقها في نفس الوقت، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى اكتسبت هذه الصبغة بسبب طريقة إعداد الفنان، وهي في جوهرها لا تختلف كثيرا عن الوسيلة التي تتبع في إعداد الصناع الفنيين التقليديين، ويعتمد فيها علي تتلمذ عدد من الأطفال والصبيان على يد صانع ماهر يتدربون تحت إشرافه وإرشاده علي الأعمال الفنية مبتدئين من أبسطها ومنتهين بأكثرها صعوبة وتعقيدا.

كذلك كان الشأن في تعليم المصورين إذ يلتحق عدد من الصبيان بمَرسم مصور ماهر ويتعلمون منه كيفية تحضير الألوان وتجهيز الورق، ويتمرنون في نفس الوقت على نقل نماذج معينة من رسوم يعدها لهم، وعليهم أن يحذقوا رسمها من الذاكرة قبل الانتقال إلى رسم ما هو أصعب منها، وهكذا ينتقل التلميذ من رسم الخطوط إلى الأشجار إلى الحيوانات إلى الأشخاص.

وكان لهذه الطريقة أثرها الواضح في التصوير؛ فهي أولا تعوّد المصوِّر الناشئ على رسم نماذج معينة، فضلا عن أنه كان يتعلم تكوين الصورة عن أستاذه بواسطة الورق المخرّم، ولذلك نلحظ المحافظة على تكوينات معينة تستمر من عصر إلي عصر، وتنتقل من مصور إلي آخر، مما أكسب التصوير الإسلامي شيئا من الجمود، بل إن هذه الطريقة كانت أحيانا تقتل المواهب عند الناشئين، وهذا هو الأثر الثاني لها، ولذلك فالذي يمتاز منهم عن غيره إنما يمتاز بفضل إتقانه مزج الألوان وتفوقه في إكساب صوره مسحةً من الجمال والرقة، أو حفظ النسب بين الأشياء بعضها بعضا أو صدق تمثيل الطبيعة أو التوفيق في التعبير عن الحركات، ولكن كل هذا داخل الإطار العام للعصر.(٥)

و لم يكن عمل المصور الإسلامي -مثلا- بالأمر الهين، بل كان عملا شاقا مضنيا، يستلزم منه وقتا طويلا ويستنفد مجهودا عظيما، إذ لم يكن مقصورا على الرسم فقط، بل كان عليه أن يحضّر بنفسه أدواته كالفرشاة والألوان، والأصباغ والورق المزخرف، وكل ما هو في حاجة إليه في عمله.

وما يحدث في التصوير يحدث مثله تقريبا في كل الفنون الإسلامية التطبيقية مثل صناعة السجاد والزجاج والخزف وحتى صناعة المسكوكات المعدنية. ومن الملاحظ أن بعض الفنانين كانوا يسجّلون أسماءهم علي قطعهم الفنية.

### اختلاف الألسنة

إن اختلاف الألسنة يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والمفكرين والشعراء في لغة غير لغتنا، أو في بلد غير بلدنا، إلا عن طريق

الترجمة. وإن هذه الأفكار حتى بعد ترجمتها لا تستغني عن التفسير التوضيحي الطويل؛ أما مبتكرات المعماري والمصور والخزّاف والنسّاج والخطاط وغيرهم من أرباب الفن، فهي على اختلاف بلادها سهلة النطق والفهم لإشباع حاسة الجمال فينا.

والفن مطلب ضروري للإنسان يندفع إلى تحقيقه، سواء جلب له منفعة عاجلة، أم عجز عن أن يجلبها له، وهو كالمعرفة الخالصة في التفسير. وإذا كانت غاية المعرفة هي «التفسير العقلي للظواهر» فغاية الفن هي استبطان الشعور الحي وتجسيمه، و«المشاركة الحيوية» التي هي ضرب من التماس الوجداني والتفاعل مع الصور الحيوية. وإذا كان العالِم لا يخلع ذاته على الظواهر التي يحاول تفسيرها لتحقيق الموضوعية، فإن الفنان على العكس منه، يجعل ذاته نقطة انطلاق ومحطة وصول. فالإبداع الفني ينبع من ذات الفنان، ليحتكّ بعد هذا الجهد الحيوي العام، فيكشف عن صور الحياة في تماسها مع ذاته.

### اليد المعجزة

وإذا كان التراث الفني الإسلامي قد اندفع إلى الوجود عن طريق «العقل» و«الوجدان»، فقد سبقتهما في ذلك «اليد» التي أبدع الله تكوينها وصاغ شكلها، وأودع أطراف أصابعها سرّ الوجود وحقيقة الحياة ومستقبل الإنسان. وهذه اليد كالقلب والعقل، ذكرها الله في محكم آياته في مائة وعشرين آية، جاءت متفرقة في العديد من السور القرآنية.

وتأخذ حقيقة «اليد» كما خلقها الله فيما تأخذ لتكون صانعةً لاستمرار الإنسان ودوامه، ومكوّنةً لحضارته وممهدة لوجوده ومثبتةً لحياته على هذه الأرض، كأرقى المخلوقات، وهي وحدها لا العقل والوجدان التي عبرت عن حقيقته الأولى، حيث استطاع إشعال النار واستعمال الأدوات المستمدة من الأحجار والعظام وفروع الأشجار. وفي عصور لاحقة حيث عملت يده في أعمال فنية، كصناعة الفخار والرسم على جدران الكهوف. هذه قصة «اليد».

و«الخط» لسان اليد، فهي التي كتبت وأبدعت، وشكلت الفنون. ولذلك فلا غرابة أن يصبح «الخط العربي» وبخاصة حين يأخذ مادته من القرآن الكريم هو الفن السائد في المجتمعات الإسلامية خلال كثير من العصور. وقد استطاع الخط العربي مثل الأرابيسك أن ينقل البيئة الأساسية للفهم المنطقي -أعني الرموز الفكرية الأبجدية- إلى مادة فنية تصويرية، إلى بيئة فنية يصبح الوعي الجمالي فيها أصليا لا ثانويا، قائما بذاته لا بغيره.

### الفن والجمال

لقد استُخدم الفن دائما للتعبير عن «الجمال» في كل مجاليه ومظاهره، وخاصة في الحس والشعور الإسلامي، وبالضرورة حين يكون عنصر الجمال عميقا في هذا الوجود ومقصودا لذاته يتبدى واضحا في كل كائناته «الجامدة» وغير الجامدة، والإنسان -وهو خليفة الله في الأرض- مُطالَب بأن يفتح حسه لهذا الجمال ليلتقي أجمل ما في نفسه -وهو حاسة الجمال- بأجمل ما في الكون، ويُنتج من هذا اللقاء تلك الألوان المتنوعة من الفنون والإبداع، فتصير تلك الفنون أنواعا من التعبير عن ذلك الجمال. ومن هنا كان التلازم بين الجمال والفن؛ فلا تصور للفن بلا جمال ولا تصور للجمال بلا فنّ.

وسواء أكان الفنان بإزاء لوحة تشكيلية، أم بإزاء مقطوعة موسيقية، أم بإزاء قصيدة غنائية فإنه في كل هذه الحالات إنما يقدم لنا «موضوعا جماليا»، عيانيا، مكتملا، متينا، متحددا. والفنان الحقيقي يقدم لنا إعجازا فنيا، يجعل الفكرة تتجسّد في الطبيعة لكي تستحيل إلى فكرة باطنية تنبع من أعماق وجودنا. فإذا بنا نستشعر نضارة الربيع ونشوة الحياة، وكأن جسدنا نفسه قد أخذ يتراقص على سحر تلك الفكرة التي مسنا بها الفنان.

ولقد مارس الفنان المسلم عمله بحرية مطلقة، كما يقول المستشرق «غرابار»، هذه الحرية المطلقة التي جعلت أي عنصر قابلا للتطور في أي اتجاه: «وهكذا كانت للفن العربي الإسلامي في بداية الإسلام إمكانيةُ نموّ جديدة لا توجد لها، وإمكانية تطور كبير، تشهد عليها واجهة «قصر المشتى» بوضوح، مما يعطي فكرة عن خاصة مميزة للفن الإسلامي في عهد تكونه، وهي «الحرية». فليس هناك نهاية وليست هناك حدود أخرى سوى إرادة الفنان».

وتجلت عبقرية الصانع المبدع في الفن الإسلامي المجرد في تزيينٍ أغنى بها القطع الاستعمالية المصنوعة من الخزف أو من الخشب أو الزجاج أو السجاد. ولقد بدأ هذا التزيين الذي تجمعت فيه حصائل لا حد لها في متاحف العالم، والمقتنيات الخاصة، بأشكال وطرق تختلف باختلاف المادة التي صُنع منها.

### العلاقة بين القيمة الجمالية والقيمة الأخلاقية

فإذا ساءلنا الفن الإسلامي، هل من علاقة بين القيمة الجمالية والقيمة الأخلاقية؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن اعتبار «الخير» صورة من صور «الجمال»؟

فإننا نجد الفن الإسلامي يرى أن الفلسفة التقليدية كانت

على حق حينما جعلت من القيمة الأخلاقية شكلا من أشكال الجمالية. حقا إن «الجميل» مكتف بذاته، لأنه يملك في ذاته تعبيرا قويا لا حاجة به إلى ترجمة أخرى، سواء أكان ذلك بلغة الأخلاق أم لغة الدين. ولكن من المؤكد مع ذلك أن للجميل طابعا دينيا هو الذي جعل حقائق الدين المقدسة تَلتمس في شتى الفنون أسمى تعبير عنها. ولن يتناسى الإنسان هذا الطابع الديني للجمال إلا حينما ربط الفن بأهوائه وانفعالاته وعواطفه، وكأن الفن مجرد أداة للمتعة أو اللذة، في حين أن الفن قد ارتبط من قديم الزمان بأقدس عقائد الإنسان وأسمى أفكاره وأرفع قيمه.

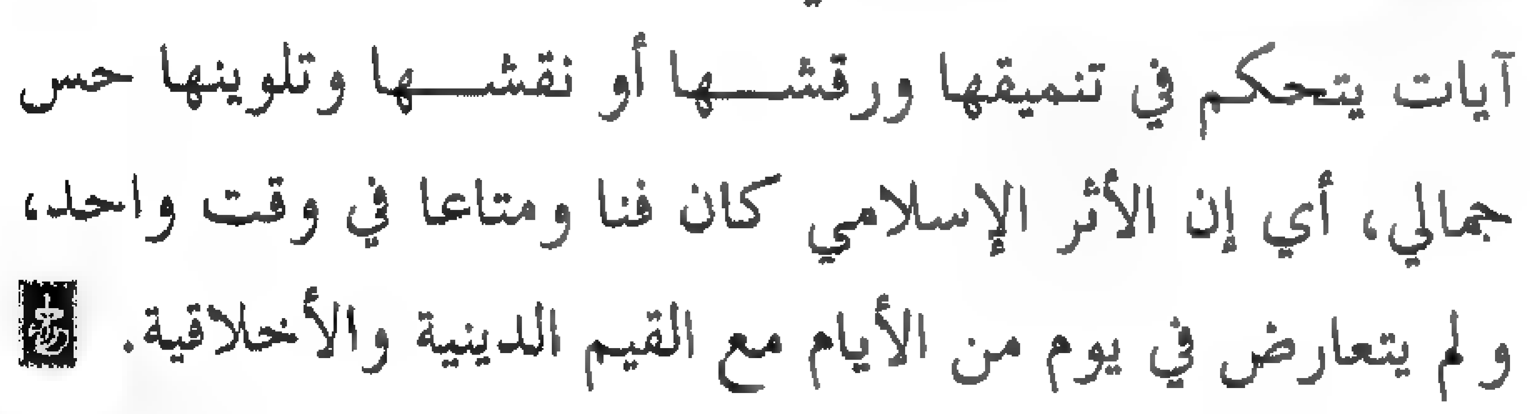
وقد أدرك ذلك منذ زمن مبكر كثيرٌ من المفكرين والفلاسفة، وعلى رأسهم أرسطو بنظريته في «التطهير» أو «الكاثرسيس»؛ فنراه يقرر أن للفن مضمونا أخلاقيا يتمثل في التسامي بأرواحنا، ومساعدتنا على مقاومة أهوائنا. ومعنى هذا أن للفن صبغة تطهيرية تجعل منه أداةً فعالة لتنظيم البدن، وتصفية الأهواء، وتنقية الانفعالات. ويضرب أحد فلاسفة علم الجمال مثلا بالموسيقى فيقول: «إن النغم صورة مهذّبة من الصياح، بحيث إن الموسيقى لتبدو بمنزلة تنظيم تلك الأصوات التي يصدرها الإنسان حين يئن أو يصيح، أو يتأوه، أو ينتحب». وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى الغناء، والرقص، وغيرها من الفنون، فإن الإنسان لا يتخذ من التعبير الفني -في كل هذه الحالات- سوى مجرد أداة لتنظيم انفعالاته.

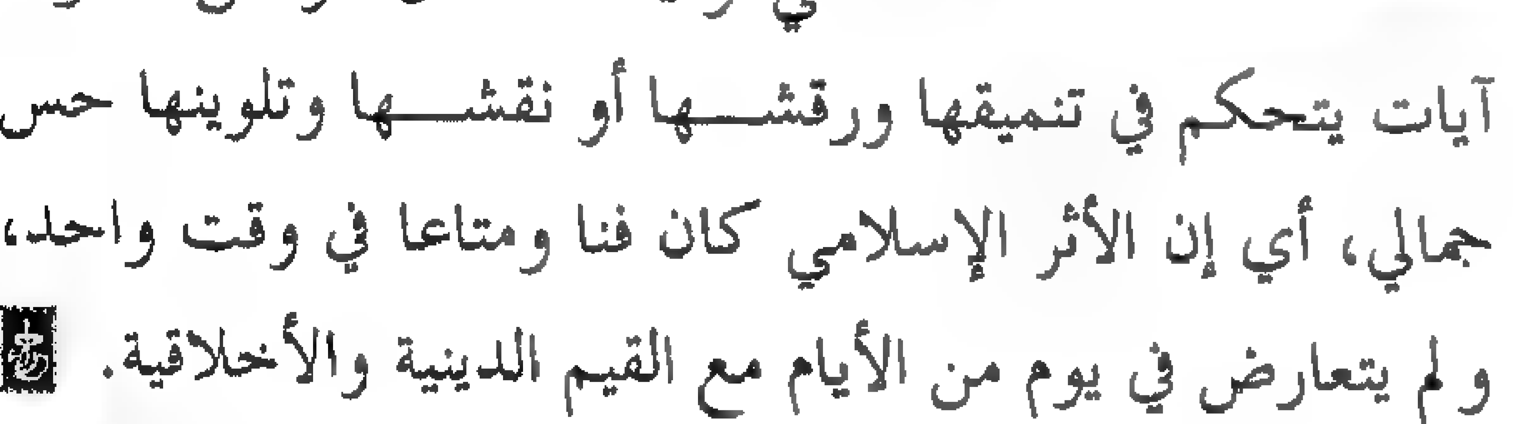
## الفن والشعور بالذات

إن من شأن الفنون أن تساعدنا على الشعور بذواتنا، والتعرف على حقيقة مشاعرنا، فهي أشبه ما تكون بمرآة حقيقية للنفس، تنعكس على صفحاتها كلّ أهوائنا وعواطفنا وانفعالاتنا وأفكارنا. والواقع أنه إذا كانت هناك علاقة وثيقة بين الفن والأخلاق، فما ذلك إلا لأن الفنون الجميلة تطهر أهواءنا وتنقي انفعالاتنا، وتحقق ضربا من التوافق بين أحاسيسنا وأفكارنا، أو بين رغباتنا وواجباتنا، إننا نشعر بضرب من السعادة العميقة حينما نرى الشيء الجميل. لأننا نستشعر عندئذ توافقا عجيبا هو الذي ينتزع من نفوسنا كل إحساس بالصراع أو التمزق، وكأن الإحساس بالجمال يقترن في نفوسنا بإحساس أخلاقي هو الشعور بالسلم أو الطمأنينة أو التوافق النفسي.

وقد حققت الفنون الإسلامية كل تلك الأبعاد الأخلاقية متجسدة في مختلف الصور، بل أكثر من هذا، فقد مزجت أيضا بين الجميل والنافع، ولم تفصل بينهما كما فعلت بعض فنون الغرب، والتي دعت إلى «الفن للفن» أو الجمال لذات الجمال، مفرقة بين الفن والصنعة.

إن كلمة «الفن» المتداولة اليوم تحمل معنى الصناعة نفسه في كتب المؤلفين العرب والمسلمين، ومع ذلك لم تكن الصناعة عند المسلمين نوعين، رفيعة وصغرى، بل إن جميع الصنائع هي آثار فنية. فلم يكن ثمة تمييز في قيمتها على أساس المنفعة، لأنها كانت نافعة وممتعة بطرافتها ودقتها وجمالها؛ وعلى العكس





مما يبدو في آثار الفن التشكيلي الغربي (اللوحات والتماثيل) التي لا يُقصد من ورائها الاستعمال النفعي، بل التمتع فقط. وينحرف العمل الفني عن الفن إذا اقتصر الهدف منه على المنفعة. ولكن الفن الإسلامي -وكما أدرك ذلك بحق الباحثُ الكبير عفيف البهنسي- يوّحد بينهما فتبدو السجادة والمُنمنمة والفسقية والإناء، ليست بمجرد أشياء استعمالية يتحكم في صنعها الغرض النفعي والاستعمال، ولكن أكثرها آيات يتحكم في تنميقها ورقشها أو نقشها وتلوينها حس جمالي، أي إن الأثر الإسلامي كان فنا ومتاعا في وقت واحد، ولم يتعارض في يوم من الأيام مع القيم الدينية والأخلاقية.

---

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، جامعة عين شمس، كلية التربية - مصر.

الهوامش:

(١) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٩م بيروت، ٢ /١٦٥.

(٢) الفنان والإنسان، د. زكريا إبراهيم، مكتبة غريب، ١٩٧٧م القاهرة، ص ١٣.

(٣) مقدمة في علم الجمال، د. أميرة مطر.

(٤) تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، كرستي (الترجمة العربية)، ١٩٨٤م دمشق، ص ١٢.

(٥) التصوير الإسلامي ومدارسه، د. جمال محمد محرز، ١٩٦٢م مصر، ص ٨١ -٨٣.

# تهافت نظرية التطور

أورخان محمد علي *



كانت الفلسفة في بداية نشوئها وتطورها تبحث في كل شيء وتهتم بكل شيء ومن ضمنها العلوم المختلفة، أي كانت العلوم ساحة من ساحات الاهتمام الشامل للفلسفة؛ فمثلاً نرى أن «أرسطو» -بجانب اهتمامه بإرساء قواعد المنطق- يهتم بجميع العلوم المعروفة في عهده بدءً من الرياضيات وانتهاءً بعلوم الأحياء؛ ونرى «أفلاطون» -أستاذ أرسطو- يكتب على مدخل مدرسته: «من لا يعرف الرياضيات فلا يدخل إلى هنا».

وعندما اتسعت العلوم اتساعاً كبيراً وتشعبت، لم يعد هذا ممكناً و لم يعد في وسع أحد أن يحيط بجميع العلوم إضافة إلى اشتغاله بالفلسفة، فانفصلت ساحة العلم عن ساحة الفلسفة تدريجياً. أي إن علوم الطبيعة والنفس والرياضيات والفلك كانت فصولاً من مبحث واحد هو الفلسفة. فلما اكتمل نموها أصبحت علوماً مستقلة كما نراها اليوم.[1] وقد اشتغل أرسطو وألف في الأخلاق والسياسة والمنطق والبلاغة والفلك وعلم الحيوان. كما كان الفلاسفة المسلمون أمثال «الفارابي» و«ابن سينا» من هذا النمط الموسوعي، فلم يقتصر نشاطهم في ساحة الفلسفة والمنطق بل تعداها إلى الرياضيات والفلك والموسيقى والطب واللغة.

## علاقة الفلسفة بالعلم

ولكن العلوم والنظريات العلمية مع كونها منفصلة منذ قرون عن الفلسفة إلا أنها تعد -كما ذكرنا- أهم عامل وموجّه لجميع المدارس الفلسفية، بل سبباً في نشوء مدارس فلسفية عديدة؛ فمثلاً نرى أن القوانين التي اكتشفها «نيوتن» أثّرت في جميع فلاسفة عهده وفيمن جاء من بعدهم بقرون، حيث أصبحت صورة العالم بعد اكتشاف هذه القوانين كأنها آلة ضخمة في كون ساكن ولانهائي بثلاثة أبعاد تسير حسب قوانين محددة ومعلومة، وتَرسَّخ مبدأ «السبب - النتيجة» ترسخاً كاملاً، حتى قال بعضهم: «أعطني جميع المعلومات وأنا أسجل لك سير الكون حتى نهاية عمره».

وبعد اكتشاف «النظرية النسبية» من قِبل «أنشتاين»، و«النظرية الكمية» من قبل «ماكس بلانك» و «هايزنبرغ» وغيرهما من العلماء، اضمحلت تلك المدارس الفلسفية وظهرت مدارس فلسفية أخرى حسب المنظور الجديد لكون ذي أبعاد أربعة (بُعده الرابع هو الزمان)، وتزلزل المبدأ السابق في «الحتمية» واختلفت النظرة إلى العالم في مقياسه الصغير (أي الذرة) وفي مقياسه الكبير أيضاً (أي

الكون»؛ أي إن العلم أصبح يـقود الفلسـفة ويوجهها.

ومن هنا تأتي الأهميـة الفائقة للنظريات وللقوانين العلمية من الناحية الفكرية والفلسفية إضافة إلى أهميتها في التقدم التكنولوجي الذي يساهم في زيادة رفاهية الإنسان وتقدمه في مضمار المدنية.

## تأثير نظرية التطور

وكذلك من هنا تـأتي أهمية «نظرية التطور» لـ«دارون». ذلك لأنها أثرت تأثيراً بعيداً في جميع المناحي الفكرية للإنسان؛ أثّرت في الفلسـفة وفي علم الاجتمـاع وفي علم النفس وفي السياسـة. وقال عنها «كارل ماركس»: «إن هذه النظرية هي تطبيق فلسفتنا في صراع الطبقات في الطبيعة» مشيراً بذلك إلى فكرة «الانتخاب الطبيعي» في نظرية دارون، فأثر هذه النظرية واضح في العديد من المدارس الفلسفية. فبعد انتشار هذه النظرية وذيوعها نرى أن العديد من الفلاسفة بدأوا بسحب هذه النظرية من إطارها في عالم الأحياء ليطبقوها على مسـتوى الكون. لذا نرى ولادة تعابير فلسفية جديدة بعد ظهور هذه النظرية وشيوعها مثل «التطور الانبثاقي» للفيلسوف البريطاني «لوي مورجان» و«التطور الخلاق» للفيلسوف الفرنسي «هنري برغسون».

والشيء نفسـه نلاحظه عند الفيلسوف الأسترالي صمويل ألكسـاندر. الذي قال بأن هناك تطور على مستوى الكون، وأن المادة كانت في صورة بسـيطة في أول أمرها ثم تطورت إلى مادة لها خـواص معينة كاللون والرائحة، ثم ظهرت الحياة وبعدها العقل، وأن الله يمثل المرحلة النهائية للعقل؛ أي إن الله – تعالى الله علوّاً كبيراً– ليس إلا نتيجة هذا التطور الذي بدأ منذ الأزل في هـذا الكون الذي عدوه قبل عقود من الزمن لانهائياً من ناحية الزمان والمكان. هذا عند طائفة من الفلاسفة المؤمنين بوجود الله، أما المنكرون والملحدون من الفلاسـفة فقد قالوا بالمصادفة؛ أي إن المادة وهي تتقلب في أدوار وأطوار وحالات مختلفة أنتجت هذا النظام الرائع المشـاهَد في الكون وفي الحياة وهذا يخالف قانون «الاحتمالات الرياضية».

كما استندت كثير من النظريات السياسية كالنازية والفاشية إلى نظرية التطور مسـتخدمة إياها كسند علمي لأيدولوجياتها البعيـدة عن الإنسـانية، فما دامت الحياة صراعـاً يبقى فيها الأقوياء ويزول من مسرحها الضعفاء، فمن حق العناصر القوية (كالعنصر الجرماني في النازية وكالرجل الأبيض عند العنصريين البيـض) أن تملي إرادتها على العناصر الأخرى وأن تفعل بها ما تشاء إلى حد الإبادة.

كما كانت هذه النظرية خلف ظاهرة الإباحية الأخلاقية أو ما سميت بـ«الثورة الجنسية» التي اجتاحت العالم الغربي والعديد من بلدان العالم. لأن الإنسان ما دام سليل حيوانات فما عليه إلا اتباع غرائزه وعدم كَبتها، وما الخُلق والضمير إلا قشـور زائفة صنعها المجتمع، وهي لا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بها.

لقد شـهد القرن التاسع عشر ميلادَ ثلاث نظريات أثّرت في الحياة الإنسانية تأثيراً خطيراً وسلبياً وهي: «النظرية الماركسية» و«نظرية دارون» في التطور و«نظرية فرويد» في التحليل النفسي. ولعـل نظرية التطور لدارون هي أخطر هـذه النظريات، لأنها حاولت البرهنة على «حيوانية الإنسان». وعندما يتم إثبات هذه الصفة الحيوانية في الإنسان ويدمغ بها فمن السهل قبول النظرية الماركسـية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية وما يشبع بطنه. وكذلك يسهل قبول نظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان وغاياته إلى غريزته الجنسية.

## تحول النظرية إلى أيدولوجية، وعمليات التزوير

وهناك ظاهرة تلفت النظـر في موضوع نظرية التطور، وهي أن هذه النظرية خرجت مـن كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخطـأ، إذ تحولت إلى «أيدولوجية» يدافع عنها أنصارها، ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مشـينة من الناحية العلمية والأخلاقية، وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى؛ فلا نرى عالماً في الفيزياء أو في الكيمياء أو في أي علم من العلوم يقوم بعملية تزوير لإثبات صحة نظريته أو صحة القانون الذي اكتشفه، لأن غاية العلم هي الوصول إلى الحقيقة. بينما نرى أن عمليات التزوير العلمية منحصرة في موضوع نظرية التطور فقط.

وأولى عمليات التزوير هذه قام بها العالم الألماني «أرنسـت هيجل» وكان من أنصار نظرية التطور. ولما رأى أن صور الأجنة لا تتطابـق تماماً مع هذه النظرية قام بعمليات رُتوش وحذْف في صور الأجنة البشرية لكي تتطابق مع نظرية «التلخيص» (وهي إحدى النظريات السابقة التي قُدّمت كبرهان على نظرية التطور ثم نفض العلماء أيديهم عنهـا بعد ثبوت خطئها). ولكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير هذه وأعلنها في إحدى الصحف، وتحدى فيها «أرنسـت هيجل» الذي لم ير بدّاً من الاعتراف بجريمته العلميـة والأخلاقية بعد فترة صمت وتردّد، فاعترف في مقالة كتبهـا في ١٩٠٨/١٢/١٤ وقال فيها: «إن ما يعزّيه هو أنـه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات

تزوير في الصور التي توضّح بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة لكي تطابق نظرية التطور».

إذن فهناك مئات من عمليات التزوير –وليست عملية واحدة أو عدة عمليات– تمت في علم الأحياء وفي علم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنّة قام بها العلماء من أنصار التطور.

أجل! على مثل عمليات الغش والتزوير هذه قامت نظرية التطور وانتشرت، وتمت بها أيضاً عملية غسيل دماغ الجماهير في هذا الموضوع، وأصبح من لا يؤمن بها رجعياً وجاهلاً!!.

وهناك حادثة «إنسان نبراسكا» فقد عثروا على سن واحدة ليعلنوا أن صاحب هذه السن هو الحلقة المفقودة التي يبحثون عنها، ونشروا صوراً خيالية لهذا الإنسان، بل حتى عن حياته العائلية، وقدّم علماء التطور هذه السن كدليل في محكمة «سكوبس»[٢] عام ١٩٢٥. وعندما اعترض الطرف الآخر سخروا من جهله! ومع أن المحكمة أصدرت قرارها بإدانة السيد «سكوبس» إلا أن الضجّة التي أثارها أنصار التطور في الصحافة وفي المحافل العلمية جلبت عطفاً كبيراً على المتهم، وغضباً على المحكمة.

وفي هذه المحكمة قدّم علماء التطور هذه السن كدليل لا ينقض على صحة التطور، لأنهم اخترعوا من هذه السن الواحدة إنساناً أسموه «إنسان نبراسكا» وأطلقوا عليه اسماً لاتينياً رنّاناً ليسبغوا عليه صبغة علمية.

ولكن تبيّن فيما بعد أن هذه السن لا تعود لإنسان، ولا لقرد، بل لخنزير بري! نعم خنزير! إذن تأملوا مدى المبالغات الموجودة في تفسيرات علماء التطور للمعطيات العلمية أو للمتحجرات التي يعثرون عليها، ومدى انحرافهم عن النهج العلمي الذي يجب أن ينطلق من مبدأ «الموضوعية» في تفسير المعطيات والظواهر العلمية والطبيعية، بينما ينطلق هؤلاء العلماء من فكر مسبق، وهو أن نظرية التطور صحيحة. لذا يقومون بليّ عنق هذه الظواهر والمعطيات العلمية لكي تتوافق مع ما يعتقدونه من فكر مسبق. ولا يترددون –كما رأينا– حتى من القيام بعمليات تزوير معيبة ومشينة أخلاقياً وعلمياً في هذه السبيل. وهناك أمثلة أخرى كثيرة في هذا الصدد لا نوردها هنا خشية الإطالة.

لقد خرجت نظرية التطور من كونها نظرية –أو فرضية– علمية يمكن دراستها ووضعها على المحك مثل النظريات العلمية الأخرى، وأصبحت «أيدولوجية» عند علماء التطور يدافعون عنها حتى ولو تطلب الأمر القيام بعمليات تزوير مشينة.

ولكن لماذا أصبحت نظرية التطور أيدولوجية؟ لأنها النظرية العلمية الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى الإلحاد، لكونها تدعي القيام بتفسير الكون والحياة دون الحاجة إلى الخالق. فإذا ظهر أن كل نوع من أنواع الأحياء خلق على حدة، وأن الحياة لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية، لأن هذا أمر مستحيل، وأن الأحياء لم تتطور عن بعضها البعض فلا يبقى هناك أي مجال أمام جميع العلماء سوى الإيمان بالله تعالى.

**شواهد علمية على تهافت هذه النظرة**

وإذا أردنا الإشارة باختصار إلى بعض الشواهد التي تقف ضد نظرية التطور قلنا:

**١– عجز النظرية:** إن كل نظرية علمية تسعى إلى تفسير كل أو معظم الظواهر المتعلقة بها. فمثلاً عندما تضع نظرية حول الجاذبية الأرضية فيجب أن تقوم هذه النظرية بتفسير جميع الظواهر المتعلقة بها. وعندما تضع نظرية حول ماهية الضوء وخصائصه يجب أن تقوم هذه النظرية بتفسير كل ما يتعلق بالضوء وبخصائصه. وعندما تشذ أي ظاهرة من الظواهر عن النظريات الموضوعة لتفسيرها تتم محاولة اكتشاف نظرية أخرى أكثر شمولاً من النظرية السابقة.

إذا نظرنا إلى نظرية التطور من هذه الزاوية نرى أنها نظرية قاصرة جداً في هذا الصدد. ونُدرج أدناه بعض المواضيع التي لم تقم هذه النظرية بتقديم أي تفسير لها:

أ– أصل الحشرات: لا تقدم هذه النظرية أي تفسير لأصل الحشرات مع أنها تمثل ٨٠ ٪ من مجموع الحيوانات.

ب– أصل وتطور القوارض غير معروف، مع أن أعدادها هائلة وتزيد على أعداد الثدييات الأخرى.

جـ– أصل الطّيران بجميع أشكاله غير معروف تماماً. فكما هو معلوم فهناك أربعة أنواع من الحيوانات الطائرة: الحشرات، الطيور، بعض اللبائن (كالخفاش)، بعض الزواحف الطائرة (انقرضت). لا تقدم نظرية التطور أي جواب حول سؤال: كيف ظهر الطيران عند هذه الحيوانات؟

إذن ما بالك بنظرية لا تقوم بتفسير ٩٠ ٪ من الظواهر التي من المفروض تناولها ولا تستطيع تسليط الضوء عليها؟ وما دامت هذه النسبة الكبيرة من الظواهر غير معروفة وغير مفسرة من قبلها فكيف يمكن عدّها نظرية صحيحة؟ وهل هناك نظرية علمية أخرى غير هذه النظرية أبدت عجزها عن تفسير ٩٠٪ من الظواهر التي تصدّت لتفسيرها؟ وهل يمكن أن تقبل الأوساط العلمية مثل هذه النظرية؟

**٢- الحياة في الخليــة الأولى:** كيفية ظهور الحياة في الخلية الحية الأولى غير معروفة، والقول بالمصادفة ليس جواباً علمياً، بل جواباً يصــادم العلم؛ لأنه كلما زادت معلوماتنا عن الخلية الحية ومدى تعقيدها تأكد لنا أكثر وأكثر اســتحالة ظهورها مصادفــة. ويكفي أن نعلم أن جزيئات D.N.A الموجودة في الإنســان تحتوي على معلومات لو قمنا بتسجيلها على الورق لاحتجنا لــ ٩٠٠ ألف صفحة تقريباً، وهذا يعادل ٣٤ ضعف المعلومات الواردة في دائرة المعارف البريطانية. فكيف يمكن إذن أن تظهر الخلية إلى الوجود مصادفة؟ وقد عُلم من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية استحالة تكوُّن جزيئة واحدة من البروتين عن طريــق المصادفة خلال أضعاف عمر الكون، فكيف يمكن ظهور خلية واحدة حيّة بطريق المصادفة؟

**٣- الحلقــات المفقودة:** تدعي هذه النظرية أن الأحياء قد تطورت من خليــة واحدة إلى أحيــاء ذات خلايا متعددة ثم تشعّبت مســاراتها في التطور حتى ظهرت الأحياء الحالية التي تبلغ أعدادها عدة ملايين. لذا فحسَــب هذه النظرية لا بد من وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي إن أعداد الحلقات الوسطى يجب أن تزيد بعشرات المرات على عدد الأحياء الموجودة حالياً. أي إن أحياء الحلقات الوســطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على أي حلقة وسطى. و لم يصح الزعم القائل بأن طائر «الأركيوباتريكس» يمثل الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور، لأنه تم العثور على متحجرة طائر في نفس العهد الذي عاش فيه «الأركيوباتريكس» وهو العهد الجوراسي (أو العهد الطباشــيري) من قبل البروفسور «جون أرستروم» من جامعة «يالا»، وكتب مقالة مفصلة عــن هذا الطائر في مجلة الأطبّاء العلمية (المجلد رقم ١١٢ في ٢٤ أيلول/١٩٧٧). لذا لا يمكن أن يكون طائر «الأركيوباتريكس» جَدّاً وسلَفاً للطيور، بينما كانت هناك طيور حقيقية تعيش معه.

كمــا قــدّم التطوريون بعض الجماجــم التي تعود لقرود -كانت تعيش سابقاً ثم انقرضت- وكأنها الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد. وكل هذه الجماجم مدار شكّ ونقاش حتى من قبل علماء التطور أنفسهم. ولو كانت نظرية التطور صحيحة لــكان المفروض أن نعثر على مئــات الآلاف من متحجرات الأحياء التي تمثل الحلقات الوسطى الانتقالية بين الأنواع؛ لأنه تم العثور على مئات الآلاف، بل ربما الملايين من المتحجرات في المائة والخمسين سنة الأخيرة وامتلأت بها المتاحف الطبيعية.

وهذا الفشل الذريع في الحصول على هذه المتحجرات (لأنها غير موجــودة أصلاً) هو الذي دفَع بعــَض علماء التطور إلى البحــث عن مخرج من هذه الورطة الكبــيرة التي تهدد بإعدام نظرية التطور، لذا قام هــؤلاء بوضع نظريات مختلفة. ومجمل هذه النظريات الأخيرة هو أن التطور حصل فجأة ودون مراحل انتقاليــة (مثلاً حدث أن زاحفاً وضع بيضة خرج منها طائر!) و لم يســتطيعوا أن يقدموا لهذه الفرضية الخيالية البعيدة عن كل قسطاس علمي أي دليل يمكن أن يكون له وزن. وبهذا دخلت نظرية التطور في طريق مسدود.

**٤- الزمن عامل هدم لا عامل بناء:** وفي السنوات الأخيرة بدأ نقاش حاد بين أنصار التطــور وأنصار الخلق حول قانون فيزيائي يرى أنصار الخلق أنه ينقض نظرية التطور من أساسها وهو القانون الثاني من «الديناميكية الحرارية».

فهذا القانون يشير إلى أن الكون منذ خلقه يسير نحو الانحلال ونحو التدهور ونحو الموت الحراري، فالنجوم تبعث طاقة حرارية وضوئية وإشعاعية ووقودها ينفد، ونحن نرى أن كل شيء يترك لحاله ينحل ويفسد؛ فإذا تركنا قطعة لحم أو فاكهة نراها تفسد بعد مدة. وإذا تركت بيتاً أو ســيارة لحالها دون عناية وخدمة أســرع إليها البلى... وهكذا. أي لا يوجد هناك شيء يتطور أو يتحسن حاله إذا تركته لحاله و لم تتدخل بعلمك وإرادتك في تحسين وضعه؛ مثلاً تستطيع القيام ببناء بناية أو صنع آلة، ولكن العملية هنا عملية مقصودة تدخل فيها العلم والإرادة الإنسانية، وليســت عملية تلقائية. أي إن الزمن عامل هدم وليس عامل بناء، لأن الأشياء إن تركت لحالها مالت إلى الانحلال والانهدام والتفتــت، ولا تتطور ولا يزداد تعقيدها أو درجة نظامها. لذا ففي مثــل هذا الكون، وفي ظل هذا القانون الفيزيائي لا يمكن أن يكون هناك تطور تلقائي مســتند إلى المصادفات، لأن هذا الكون متوجه للانحلال وليس للتطور.

---

(*) كاتب وباحث تركي.

**الهوامش:**

(١) قصة الفلسفة اليونانية، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص ٦.

(٢) محاكمة «سكوبس» عقدت في مدينة دايتون، في ولاية «تنسي» الأمريكية في صيــف ١٩٢٥ وثارت حولها ضجة كبــيرة حتى أن عدد الحاضرين إلى المحكمة زاد عن عشــرين ألف مستمع. وخلاصة القضية أن حكومة ولاية تنســي أقامت الدعوى على أستاذ يدعى «ســكوبس» لأنه عارض صحة الإصحاح الأول من ســفر التكوين عن خلق الانسان، وقدّم نظرية التطور لداروين كتفسير بديل لقضية الخلق.

# تذوق الفن الإسلامي من الناحية التقنية

د. جواد محمد مصباحي*

في سبيل بناء الفكرة التذوقية للتحف الفنية ضمن إطار الفنون الإسلامية تحضرني إشكالية الاستقراء من خلال الإجابة على السؤالين التاليين:

١- هل كل فن يتوجب إخضاعه للمرجعية الدينية التي يعتقد بها المجتمع المبدع لهذا الفن؟

٢- خضوع مجتمع ما لدين جديد، هل يسمح باستقراء ممارساته الفنية داخل إطار هذا الدين؟

من خلال مقاربة بسيطة يتّضح أن الإجابة على الإشكال الأول تكون في مجملها بالإيجاب؛ فبدءً بالمجتمعات البدائية ومرورا بالحضارات المتمدنة يبرز الخضوع الإجمالي للمبادئ والمرتكزات العقائدية / الدينية بشكل لا يحتاج لتمحيص.

أما فيما يخص الإشكال الثاني، فقد تبقى الأعمال الفنية بمقوماتها ومفاهيمها الـ«ما قبل خضوع المجتمع للدين الجديد»، لكن هذا الأخير قد يؤطرها بنظرياته فيخضعها للتحوير الكلي أو التجديد، وقد يتركها على ما هي عليه إذا كانت لا تتعارض مع مبادئه العقائدية. وعليه تصبح هذه الإبداعات مصهورة في بوتقته ولا يسع القارئ إلا ركوب الفكر الديني للاستقراء الصحيح والتأويل المضبوط للطرح الفني لهذه الإبداعات.

فيما يخص الفن الإسلامي، ففكرة التسامح والتعايش الاجتماعي من صلب العقيدة الدينية، طَبعت الممارسات الفنية بميزة التحويط؛ أي تأطير العمل الفني -حتى إذا كان بأيد غير مسلمة- بمسلّمات العقيدة ومرتكزها الأساسي (التوحيد). وبهذا المبدإ تتجلى فكرة الوحدة في الفنون الإسلامية رغم شساعة الرقعة الجغرافية للامتداد الإسلامي الشيء الذي كذلك طبع هذه الفنون بطابع التنوع.

والعمل الفني كليةً، هو إبداع إنساني تتوارثه الإنسانية بغض النظر عن معتقدات الإيمان أو درجات التطور والرقي، كل حسب منظوره. وبهذا لا يمكن التخصيص في الأشكال والنماذج الزخرفية الفنية، وربطها بحضارة أو دين ما. وكمثال على هذا قد نجد أن النجمة السداسية أو الثمانية استعملت بشكل ما في الممارسات الفنية لحضارات قبل ظهور الإسلام، ولا زالت تستعمل في إبداعات الفن الإسلامي الذي انفرد وتميز بسلوك نمط التجريد التخيلي (الزخارف النباتية أو التوريق كما يطلق عليها في المغرب) أو التجريد العقلاني (الزخارف الهندسية أو التسطير كما يطلق عليها في المغرب) وكذا الخط العربي بحكم أنه الشكل المنظور للغة القرآن، في ترسيخ فكرة التوحيد، بخلاف فنون الحضارات السابقة التي كان تركيزها بالأساس على نمط التجسيم لإيصال الفكر الديني.

فالفنان المسلم ومن خلال التوجهات الفنية الإسلامية المنبنية على الأنماط التالية بتأويلاتها:

- **الزخارف النباتية (التوريق)**: الإسقاط التأويلي للعناصر النباتية من أوراق وأغصان وأزهار وثمار في تشكيلات إبداعية.
- **الزخارف الهندسية (التسطير)**: الإسقاط التأويلي لتكوينات ومواقع النجوم والكواكب، والقراءة الهندسية للمعادلات الرياضية.
- **الخط العربي (الكتابة)**: ركوب الحرف العربي (هو رسم للغة القرآن) لتبليغ عبارات الشكر والتبجيل أو المدح والتذكير.

الفنان المسلم يُخضع دائما إبداعاته للقناعة الدينية، بالتركيز على التدليل وإثبات أبدية وسرمدية الوجود الإلهي الواحد الأحد، مبتعدا عن فكرة مضاهات الخالق في الخلق، متقربا إليه من خلال تواصلية الخط وعدم انقطاعه كيفما كان، مُنحنِيا (الزخارف

السـنباتية) أو مُستقيما (الزخارف الهندسية). فالناظر لأي إبداع من النمطين السـالفين تسرح عينه في الشـكل التواصلي لبنية التكويـن النابع من خلال مرتكز «التكرار والتماثل»، وكذلك «الرؤية الجمالية الشاملة» للخط المؤسس لهذا الإبداع.

هذان المرتكزان في الإبداع هما أساس كل نتاج فني تتمحصه العين على امتداد الرقعة الجغرافية من أقصى الشـرق إلى أدنى الغرب، ما يثبت التواجد المتكرر والرؤية المتماثلة لدلائل الفن الإسلامي (مبدأ الوحدة) مع اختلاف التقنيات (مبدأ التنوع).

وقد حرص الفنان المسـلم على التزامه وركونه لخط جمالي موحـد أخذت فيه تمثيل ثنائية الوجـود (الظل والنور) المركز الأساسي. ففي مسـار استقراء التذوق الجمالي للفن الإسلامي غالبا ما تَلبس المتأملَ أحاسيسُ مشحونة بمتعة التعرف واكتشاف رمزية كنه المنظور من خلال لعبة الظل والنور، الأبيض والاسود، الكتلة والفراغ.. هذه المفاهيم التي تطلبت لترسـيخها وجعلها كائنا ملموسا في الإبداع، الارتكاز إلى ما يلي:

١. **المعرفة**: وتنقسم إلى ثلاث تصورات:

أ- التصـور الفني الكلـي: المعرفة التامة بمادة الاشـتغال، والتقنيات الضرورية لها، وكذلك المعرفة القبلية للشكل النهائي للتحفة المبدعة. فهناك على طول خطوط الإبداع والخلق الفني وجود حتمي لمفهوم التوازن.

بـ- التصـور الاحتياجي: المعرفة التامـة بالحاجة النفعية للقطعة الفنية. وعليه بناء التصور الجمالي مراعاة لذلك.

جـ- التصور الجمـالي: المعرفة الكليـة بارتباط التحفة والمكان. وعليه الاشتغال ضمن مساق إبداعي متكامل.

٢. **حَيثيّات الاشتغال**: وهي على مرتكزين:

أ- المادة المشـتغل عليها: نظرا لشسـاعة الرقعة الجغرافية للوجود الإسلامي ألم الفنان المسلم ومنذ البدايات الأولى بمعرفة التركيبات المفردة أو الكلية للكثير من المواد سواء كانت أرضية أو بحرية، واسـتطاع أن يستشف من الخامات بنيات تشكيلية زخرفيـة ممتطيا صهوة الرمزيات الدينية في كيفية الاسـتعمال وتراتبية التكوين الإبداعي.

بـ- النماذج الزخرفية: بالدخول في بنية التراكيب الزخرفية للفن الإسلامي لا يجد المتأمل نفسه إلا وكأنه في متاهة لا حدود لها، ففي هذا الفن الذي يؤسس له بمطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وإلى الوقت الحالي وما شاء الله من الزمن، هناك وحدةٌ في العناصر البنيوية للزخرفة وتنوعٌ في التراكيب المظهرية للنماذج / الأشـكال الزخرفية، تطبع هذا الفنَّ بطابع الديمومة والتميز، وتعطيه دفعا ذاتيا متواترا.

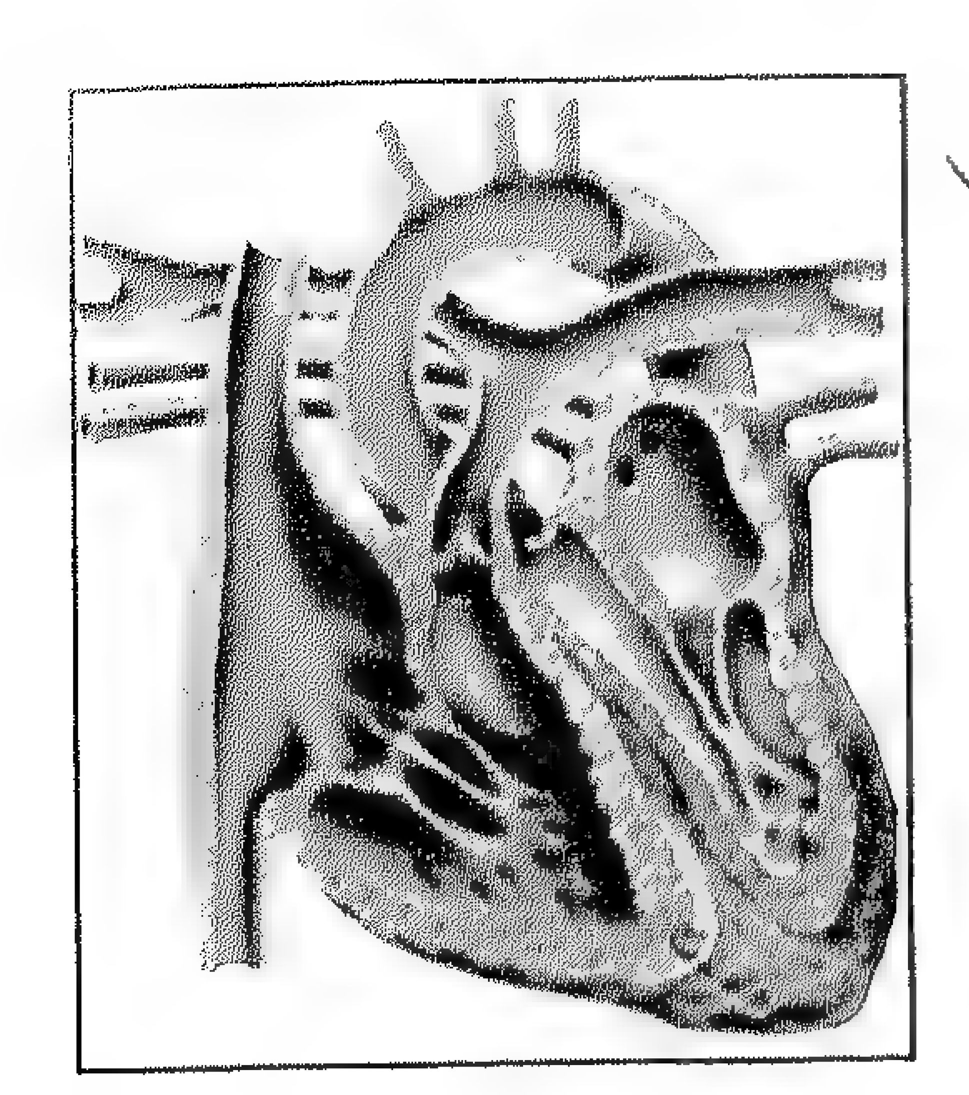
٣. **التمكّن التقني**: وهي ثقافة مكتسبة يتمكن منها الفنان بالتعلم والممارسة، دافعه الداعم دعوة الدين الحنيف وحثه على العلم والتعليم، وكذا تقدير اليد العاملة المجدة والمتقنة للعمل.

٤. **الأدوات الرمزية**: للتعبير عن قناعات المتخيَّل الداخليّ، وللوصول إلى أرقى درجات السمو الروحي في محاولة لإدراج العطـاء / الإبداع ضمن مقومـات التقديس والتبجيل للذات الإلهية، وعلاقـة الدنيوي بالأخـروي، وكذلك علاقة الخلق بالخالق، جاء الارتكاز على مجموعة مفاهيم رمزية لتأويل كل مكون من مكونات الجملة الإبداعية، سـواء كان الفعل عطاء (الابتكار والإبداع الفني) أو تلقيا (التذوق والاستقراء).

فبخلاف ارتباط الممارسـات الفنية لما قبل الإسلام بالذات الإنسانية ومخاطبة الغرائز في البعض منها، وكذلك الارتكاز على العقل فقط في الاستقراء والتأويل، الفن الإسلامي له ارتباط وثيق بالتوحيد، والفعـل ورد الفعل لهما نفس المنطلق ونفس المرجع (الوحدانية والتوحيد) ضمن توصيف مبني على:

- **الإطار**: محاولة التقرب من الخالق بالخلق في احترام النسـب الجمالية والتأويل الرمزي.
- **السند**: كل مقومات الفكر الديني للوصول قدر الإمكان إلى قمة التوحيد والتبجيل للذات الإلهية.
- **المادة**: البحث والتمحيص للرقي بمادة الاشتغال من البساطة (الحالة الدنيوية) إلى الكمال (الحالة الأخروية).
- **التقنية**: مجموعة الأفعال وردائها على كل إشـكالية تعترض العملية الإبداعية.
- **التاريخ**: جدلية الخلق والابتكار، وعدم الخصوصية، فالقطعة الفنية هي ملك للتاريخ وليس للشخص المبدع.
- **الفكرة الأساسية**: طريقة التعبير عن التعبد والتوحيد وإلزامية اليقين بـ «لاإله إلا الله».
- **العمل الفني**: قطعة إبداعية رغم تحديدها وتأطيرها هي انفتاح على اللانهاية للدلالة على السرمدية والأبدية.
- **الإشكالية**: تشخيص ثنائيات الوجود، وأُخصّ بالذكر -كما سلف- الظل والنور، البياض والسواد، الكتلة والفراغ لإلزامية ذلك في خلق التوازن الجمالي داخل الوحدة الصغيرة (القطعة الفنية) لتكون امتدادا للوحدة الكلية (الكون) دون نشاز.

(*) جامعة البلقاء التطبيقية، كلية الفنون الإسلامية - الأردن.



# أنا قلب عبد الله

أ.د. عرفان يلماز *

لقد بدأتُ بالعمل قبل أن تولد أنتَ بشهور. ولا أدري هل فكّرت واستمعتَ لي وقلت: «ما هذا الذي ينبض في صدري على الدوام دون أن يرتاح دقيقةً واحدة؟» إنني عضو في صدرك وأُعَد محرِّك جسدك وقد سمَّوني بـ«القلب».

لقد أحسستُ الآن وأدركتُ بعد مضيّ سنوات عديدة أنك لم تقم فيها بالاستماع إليّ، ولم تحمل فضولاً وشوقا لمعرفتي. لذا رأيتُ أن هناك حاجة لقيامي بنصيحتك.

بعد مضيّ ١٩ يوما فقط على كونك جنينا في رحم الأم بدأ خلقي من كومة خاصة من الخلايا. كنتُ في أوّل الأمر شبيها بأنبوبة، ثم بدأت ألتفّ شيئا فشيئا، وبدأت عملية خلق خلاياي والأوعية الدموية المجاورة لي. والحقيقة أننا خُلقنا مع سائر خلايا الجسم تدريجيا من خلية واحدة، ثم بدا ظهورُ الاختلافات بَين الخلايا والتخصّصات فيما بينها. وتغير أصدقائي من الخلايا الأخرى وهي ولا زالت بعمر بضعة أيام، لكي تقوم كلٌّ منها بوظائف مختلفة ولتتحول إلى جلود وغضاريف وعضلات... الخ. أما خلاياي فقد تمت بَرمَجتها بشكل خاص، وعندما بلغَتْ في اليوم الثاني والعشرين إلى عدد معين وصارَتْ كتلة معينة تلقينا أمرا بالبدء في عمل لا نعرف متى ينتهي. وأنتم تُطلقون اسم «النّبض» أو «ضربات القلب» على الصوت الناتج من الحركة الجماعية لانْكماش خلاياي.

صحيح أن عبد الله لا يلتفت ولا ينتبه لنبضنا هذا. ولكنني أضطر إلى زيادة هذه النبضات أو الضربات عندما يركض عبد الله، لكي أوفّر لعضلات رجليه كمية أكبر من الدم. عند ذلك فقط ينتبه عبد الله إليّ، ولكنه لا يُعير أي اهتمام لهذه المسألة، ويَخال -لغفلته- أنني سأقوم بهذه الوظيفة إلى الأبد وكأنني لا أتعب. لِنقُلْ إن هذه غفلة بسيطة نتيجة حداثة سنه وشبابه، ولكن غفلته الكبرى هي أنه لا يفكر: كيف وجدني؟ ومن وهبني له؟ أي عدم تفكيره في الخالق تعالى الذي خلقني وأهداني إليه. وهذه هي الغفلة التي لا أستطيع قبولها، مع أنه يدرس الآن في المدرسة الثانوية ويتلقى هناك بعض المعلومات عني في درس علم الأحياء (البيولوجيا). والذي يغيظني أكثر أن هذه الدروس تصورني وكأنني مجرد مضخّة اعتيادية، علما بأنه لولا قيامي بضخ الدم إلى دماغه لَما استطاع أن يحرك إصبعا من أصابعه. ولكني سأقوم اليوم بدعوة عبد الله إلى التفكير وإعلامه بأنني لست بمجرد قطعة لحم، وأدعوه للتعرف على خالقه وإلى الاهتمام بجانبَي المادية والمعنوية كذلك، وإلا فإن نهايته ستكون وخيمة؛ لأنني صديقه، وقد يكون كلام الصديق مؤلما في بعض الأحيان، ولأنني أريد أن يلم نفسه ويستجمعها وهو لا يزال في مقتبل العمر ونضارة الشباب.

### متى أتوقف

إن جميع الخلايا (وهي تبلغ ١٠٠ تريليون خلية تقريبا) يجب أن تقوم بعمليات التغذية والتنفّس والهضم وبطرح الفضلات والقيام بوظائف خاصة. كل هذه الخلايا في حاجة إليّ، تُرى لماذا؟ لأن كل هذه الحاجات تُلبّى بفضل عملي الدائب. لذا أقوم بالعمل قبل جميع الأجهزة والأنظمة الأخرى الموجودة في الجسم منذ المرحلة الجنينية؛ أي منذ كون الإنسان جنينا في بطن أمه. ولا أدري مقدار المدة التي سأعمل فيها؛ لأنني -وإن كنت في صحة وعافية- فإن المَلَكَ الذي يأتي بالأمر من ربّه إن قال لي: «قف!» اضطررت إلى الوقوف والتخلي عن القيام بوظيفتي. ولكن ملك الموت لا يوقفني عن العمل في العادة دون سبب، فلا بد من وجود سبب.

وهناك أسباب عديدة جدا لتوقفي، ولاسيما في هذا العصر. والحقيقة أنني أيضا مذهول من كيفية عملي. وهناك بعض التدابير التي أدخلت في البرنامج الذي تم وضعه في داخلي ضد

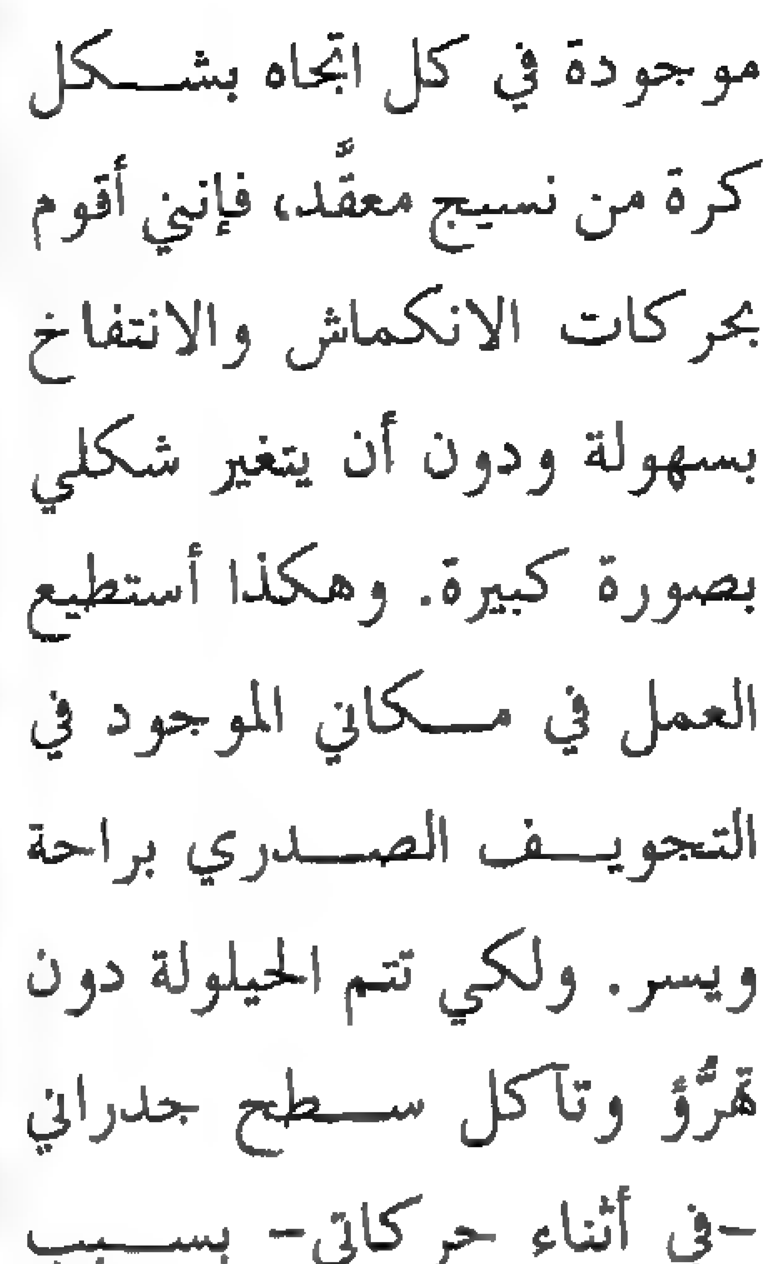
فقد الدم في حوادث المرور أو عند حصول الجروح أو عند انقطاع بعض الشرايين. ولكن إن لم يتم تعويض الدم المفقود بعد مدة من حصول الجرح ولم يتم سد هذه الجروح فإنني قد أتعب وأتخلى عن القيام ببعض وظائفي.

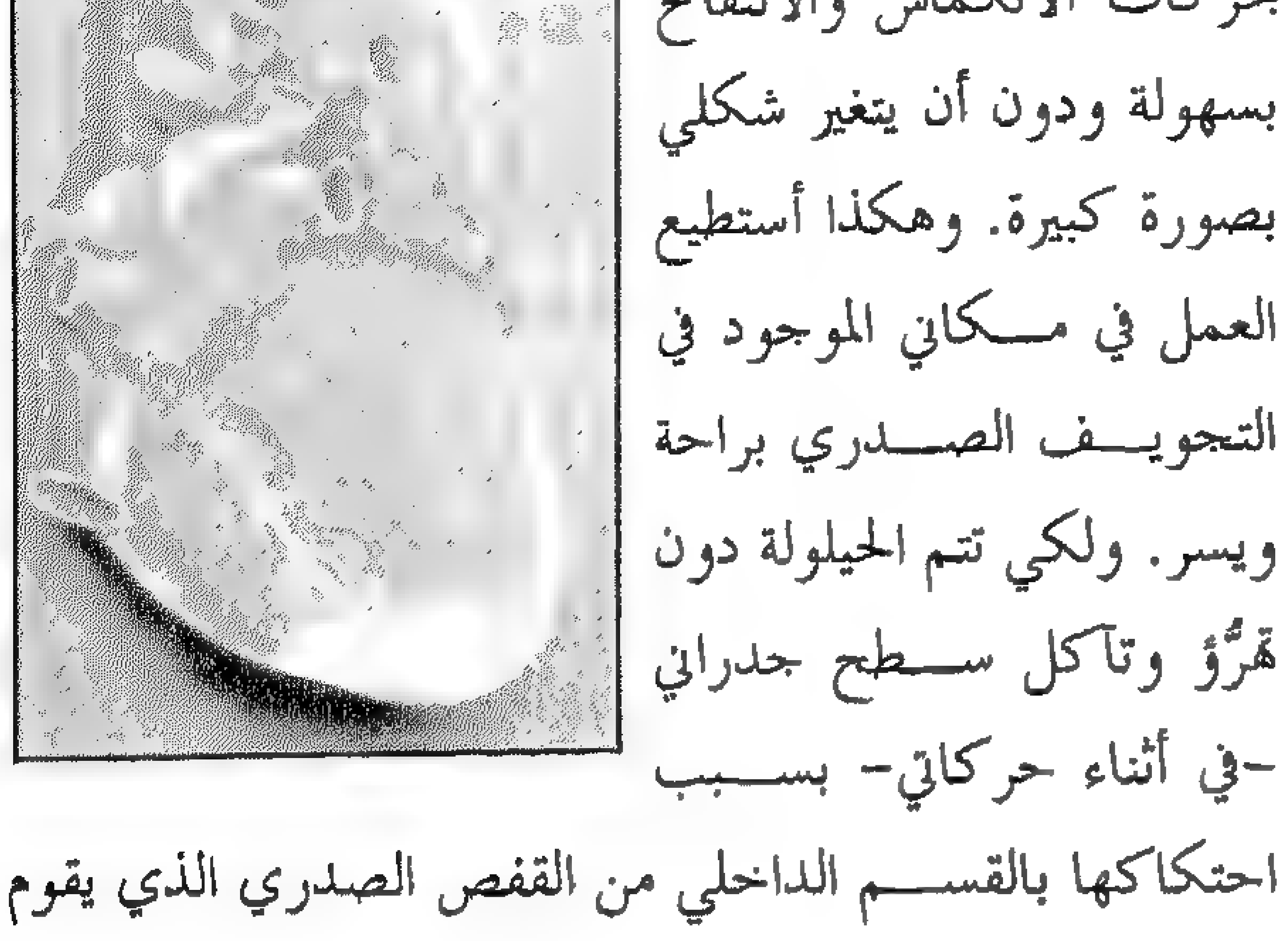
انتبه يا عبد الله! أقول لك مرة أخرى، إن أكبر إساءة إليّ تصدر منك. وعندما أتعب في يوم من الأيام وأتوقف عن أداء عملي فلا يحق لك أن تشتكي مني أو تعاتبني. أنت مشغول على الدوام بأكل الأغذية الدهنية، لذا فإن جارتي المعدة تشكو منك على الدوام، لأنك تملؤها كثيراً. وعندما تنتفخ المعدة تتقدم بطلب المساعدة مني وهذا يُتعبني. ولا أدري ألم تسمع الحديث النبوي «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه» (رواه الترمذي). أنا لا أعترض على تناولك الخضراوات. ولكن ما هذا النهم للمعجنات، وللحلويات الدَّسِمة، وللمقليات ولأنواع الكباب؟! انتبه وكن حذرا! وإلا فإنني سأضع قائمة طويلة من نقاط المحاسبة أمامك. ولكن قد يكون الآوان قد فات آنذاك. أجل! إنني أتفهم أن تأخذ نصيبك من متع الدنيا، ولكن لكل شيء حدود وضوابط. ولو واصلت على هذا المنوال لصعب على صماماتي القيام بالحركة نتيجة تراكم الدهون عليها، ولانسدّت أوعية الدم الرئيسية عندي. ونظرا لأن الشريان التاجيّ عندي رقيق فهو معرّض للانسداد في مدة قصيرة، وهذا سيؤدي إلى أنني سأواجه أزمة نتيجة عدم -أو قلة- وصول الأغذية إليّ. وهذا تنبيه هام لك.

### تنبيهات هامة

أنت تجلس يا عبد الله أمام التلفزيون من الصباح إلى المساء، أي إن حركاتك قليلة ومحدودة، ولولا خجلك ممن حواليك لذهبت إلى البقال بالسيارة. وأنا أنصحك أن تقوم كل يوم وفي ساعات محددة ببعض التمارين الرياضية. وهناك بعضٌ من أصدقائك عندما يقومون بعبادة خالقهم يقومون بحركات تحفظ صحتي وعافيتي، وإن كانت في حدها الأدنى. أي إنهم يؤدّون وظيفة العبودية لخالقهم بروح مطمئنة من جهة، ومن جهة أخرى يجعلونني في وضع أفضل. ونظرا لقيامهم في شهر معين من شهور السنة بالامتناع عن الطعام والشراب في ساعات معينة من اليوم، فإنني أجد فرصة للراحة، حيث يتيسر آنذاك حرق بعض الدهون كذلك.

ونظراً لأن الألياف العضلية التي تشكّل معظم جسدي موجودة في كل اتجاه بشكل كرة من نسيج معقّد، فإنني أقوم بحركات الانكماش والانتفاخ بسهولة ودون أن يتغير شكلي بصورة كبيرة. وهكذا أستطيع العمل في مكاني الموجود في التجويف الصدري براحة ويسر. ولكي تتم الحيلولة دون تهرُّؤ وتآكل سطح جدراني -في أثناء حركاتي- بسبب احتكاكها بالقسم الداخلي من القفص الصدري الذي يقوم بحمايتي وينحني عليّ مثل سقف حافظ، فقد تم تغليف هذه الجدران بنسيج ذي طبقتين، ووضع سائل بين هاتين الطبقتين. وهكذا يقل تأثير الاحتكاك إلى الحد الأدنى، وتتم الحيلولة دون تآكل هذه الجدران. وأنشدك الله يا عبد الله! فكِّر قليلاً وقل لي: من يستطيع أخذ كل هذه التدابير؟





### كيف أعمل

وعلى غرار السيارة التي تعمل بمحركات أربع فإنني أعمل كمضخّة فيها أربع غرف، ويطلق اسم «الأذَين» على الغرفتين العلويتين. ويدخل إلى الغرفة اليمنى منهما الدم الفاسد الآتي من الجسم، بينما يدخل إلى اليسرى الدم النظيف الآتي من الرئة. وقابلية الضخ لعضلات هاتين الغرفتين ضعيفة ولا تكفي إلا لدفع الدم إلى الغرفتين السفليتين. أما عضلات جدران الغرفتين في الأسفل (ويطلق عليهما البطَين) فهي قوية وسميكة، وتستطيع التقلص بقوة كبيرة وتوليدَ ضغط كبير، علماً بأن قوة تقلص الغرفة الموجودة على اليسار أكبر وجدرانها أسمك. وعندما تتقلص هذه الغرفة تَدفع كل الدم الموجود فيها بقوة كبيرة وتُرسله إلى جميع أنحاء الجسم. وأنا أرسل الدم بواسطة الشريان الرئيسي الكبير ذي الجدران السميكة (ويدعى الشريان الأبهر) إلى جميع أعضاء الجسم بالكمية وبالسرعة اللازمتين. ومن المهم جداً تقلص هذه الغرف الأربع الواحدة منها تلو الأخرى في وتيرة زمنية ملائمة، وانتفاخُ الصمامات الموجودة بينهما في هذه الأثناء بالضبط واندفاع الدم بين هذه الغرف، أو اندفاعها إلى الشريانين الرئيسيين في الوقت المناسب تماما، كما أنه يجب انغلاق الصمامات في الوقت الملائم تماما كي لا يعود الدم من الأماكن التي أرسل إليها. ويتم تنظيم هذه

التوقيتات بواسطة عقدة عصبية تعمل بشكل آليّ وهي موجودة على سطحي، وتعمل هذه العقدة على إنتاج تيار كهربائي منظم. ولو حدث أي خطأ في توقيت فَتْح وغَلْق هذه الصمامات، أوْ إذا لَمْ تفتح أوْ تنغلق هذه الصمامات بشكل جيد نتيجة تراكم وزيادة الكلس أو الدهون وتم تهريب بعض الدم. فهذا يعد أحد أمراض القلب، أي أحد أمراضي.



ولمنع تراجع الصمامات الموجودة بين الأذَين والبطين إلى الخلف نتيجة الضغط المسلَّط عليهما رُبطت هذه الصمامات بحبال ملصقة بأسفلها بالقسم أو الوجه الداخلي لجدران البطين بشكل قوي ومتين. وطبعاً أنت لا تدري شيئاً عن هذا. وأنا أستمر في العمل حتى في أوقات نومك. ومن الطبيعي أنني أغيّر من حين لآخر سرعة عملي (أي سرعة نبضي) حسب العمل الذي تقوم به. فعندما تكون نائماً تكون هذه السرعة منخفضة، وعندما تستيقظ أو تتناول الطعام تزداد هذه السرعة. أمّا إن عَدَوْتَ أو مارست رياضة عنيفة فالسرعة تزداد أكثر فأكثر لكي أرسل الدم إلى كل أعضائك.

وقد تسأل عن الوَقود الذي أحرقه في عملي فأقول بأنني أستعمل في غالب الأحوال بعض الأحماض الدهنية مثل حامض اللاكتيك والسكريات. وبفضل عمليات الأيض الخاصة بي فإنني لا أشعر بالتعب.

وبين كل عملية تقلص وانبساط أرتاح لمدة عُشْر الثانية. وهي مدة قصيرة جداً كما ترى. ولكي أستطيع القيام بتوليد ضغط فعّال يجب تقلص ألياف العضلات جميعها في وقت واحد ثم انبساطها كذلك، وهذا يستدعي ورود أوامر التقلص والانبساط في دورات زمنية محسوبة بدقّة شديدة. والحقيقة أنني أيضاً لا أعرف بالضبط كيفية إنجاز هذه العملية الدقيقة. فلكي تقوم الخلايا الموجودة في المركز الصغير المودَع فيَّ بإنتاج الإشارات الكهربائية، يجب وجود فرق في توازن الأيونات بين خارج وداخل خلاياي، ثم إعادة تشكيل هذا التوازن مرة أخرى. وتتم هذه الأنشطة والتفاعلات في زمن قصير جداً يبلغ واحدا من ألف من الثانية. ومع أن هذه الخلايا تقوم بإنتاج الكهرباء وبتشغيلي فإنني لا أُعدّ حراً تماماً، لأن من العوامل المهمة التي تؤثر على عملي وجودَ بعض الأعصاب المرتبطة بالدماغ. لذا فعندما تخاف أو تغضب أو تحزن يصاب نظام عملي بالخلل.

ورغم أن الحزن والغضب يحصلان في الدماغ إلا أن تأثيرهما يظهران عندي وهذا هو -في الغالب- السبب وراء ظن الناس السابقين بأن مراكز العديد من الأحاسيس موجودة في القلب.

**مسك الختام**

سأسألك يا عبد الله سؤالاً بسيطاً: «أهناك مهندس قام بصنع التلفزيون الذي تجلس أمامه؟ وهل هناك أناس كتبوا المقالات في المجلة التي تمسكها بيدك ونضّدوا كتابتها ورسموا رسومها ووضعوا كلا في مكانها الصحيح؟ هم موجودون أليس كذلك؟ إذن ألا يستدعي هذا وجود من خلقني وخلق الشرايين والأوردة المتصلة بي بصورة تلبي جميع حاجاتك وهو أمر أكثر تعقيداً وكمالاً بآلاف المرّات من التلفزيون؟

مَرْحَى لك يا عبد الله! فكما أقوم أنا بإيفاء وظيفتي دون خلَل لكي تستمر في الحياة، قم أنت الآن بإغلاق هذا التلفزيون وخصّص عشر دقائق لخالقك الذي خلقك في أكمل صورة. وهكذا أستطيع أن أبدّد عني بعض الضيق الذي أصبتُ به من جراء توترك النفسي، وأرتاح قليلاً.

لم أستطع يا عبد الله في هذه الصفحات القليلة إلا شرح واحد بالألف من دقّة خلقي ومن النظام الدقيق لبنيتي، ومن خطورة المهمة التي أقوم بأدائها. أما الشرح الكامل والمفصل فلا أستطيعه ولا يكفي لذلك علم الأطباء والحكماء. ولكن جزاهم الله خيرا فهم يحاولون شرح الأسرار الموجودة عندي.

والآن هيا يا عبد الله وقُم بمطالعة دروسك وكن في المستقبل عالماً مرموقاً، وحاول اكتشاف بعض أسراري المجهولة، وقم بنصح الناس حول أفضل الطرق للتعامل معي واستعمالي. ولكن قبل هذا، عليك أن تملك فضولاً وفكراً ورغبة في معرفة الحقائق، ثم التفكير الصحيح، وأن تتعلم النية الصحيحة والنظر الصحيح. أي عندما تقوم بتدقيقي، عليك أن تتعود قول: «ما أجمل خلقه!!» بدلاً من: «كم هو جميل». وبدلاً من التوقف عند ملاحظة النقوش والفنون الجميلة الموجودة فيّ، عليك أن تصل إلى أفق التفكير في سؤال: «من الذي صنع كل هذه النقوش؟»». فعند ذلك سيتيسّر كل شيء، وسيكون لكل شيء في الحياة معنىً خاصّ، وستتذوّق حلاوة هذا الأمر وتصل إلى الطمأنينة وتكتسب قوة وقدرة تستطيع بها تحدي الكون كله.

(*) جامعة ٩ أيلول - تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

# موازين

أيها الشاب! توقف لحظة... استمع إلى نبضات قلبك وأنفاس وجدانك، وتهيأ لمحاسبة نفسك. انهض واستقم بنور الإيمان المشع في أعماقك، وسر في طريق النور المنبثق من روحك والممتد إلى حضرة الحق سبحانه. فهذا الطريق الذهبي يتجاوز الزمان والمكان. ولن تعرف الحقيقة التي تحتضن روحك أو الغاية المقدسة التي تتلألأ في قلبك إلا في هذا الطريق.

* * *

أيها الشاب! لتكن خطوتك الأولى في هذا الطريق اكتشاف حقيقتك... اعرِفْ من أنت ومن تكون، ثم سِرْ على بركة الله ولا تتراجع قيد أنملة... إنّ كل جهد في هذا الطريق يبعث في قلبك أمجادا نسيتها، ويكشف عن حقائق تراكمت عليها الرمال، وترى في ضوء الإيمان المشع في قلبك أن أرجاء الزمان والمكان قد استضاءت بأمواج الأنوار الساطعة من الآفاق البعيدة.

* * *

أيها الشاب! إذا عزمت على سلوك هذا الطريق الشاق اللذيذ فحدد هدفك أولا. وتبين طبيعة عملك جيدا، وضع لنفسك نظاما محكما، ثم امضِ بجد لا نكوص بعده، وثبات لا تهاون فيه. آنذاك لن تحار أثناء السير ولن تتوه أبدا، ولن تثبط العقبات عزيمتك، ولن يجد اليأس إلى قلبك سبيلا.

* * *

تأملات جديدة في

أ.د. خالد الصمدي *

# علاقة المعرفة بالقيم

من حكمة الخالق البالغة أن بدأ رسالة الإسلام باختبار القيم في سلوك أول جيل من أجيال البشرية (ابني آدم) قال تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨).

ولم تكن القرابين إلا نتيجة المعرفة المكتسبة لكل من الأخوين، والتي ارتبطت عند الثاني بالقيم حين قال ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. فالتقوى عاصمة من تحويل العلم والمعرفة إلى سلطة شر، وانفصلت عن القيم عند الأول الذي قال لأخيه ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ معتبرا أن الخبرة المعرفية كافية لقبول العمل دون اعتبار قيمة التقوى والخوف من الله.

وقد طبع النموذجان مسيرة البشرية إلى قيام الساعة، ولذلك لم تفتأ الرسالات السماوية تعمل على ترسيخ النموذج الذي يربط المعرفة بالقيم عن طريق التربية، وتحذر من النموذج الذي يفصل بينهما لما له من آثار سلبية في الحال والمآل، ولذلك ختمت هذه الرسالات، برسالة محمد ﷺ التي كانت أول آية نزلت فيها قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١). وهذا الربط في الرسالة الخاتمة بين القراءة واسم الله (الربّ) الذي يرتبط في البعد الاصطلاحي بالتربية، يجعل الإسلام لا يقر بفائدة أي علم منفلت عن القيم.

ومن هنا ارتبطت العلوم بشتى فنونها كإنتاج للمعرفة في المنظور الإسلامي بالقيم، وتكون فائدتها في تدبير شؤون الحياة أكثر فائدة حين تتجاوز منطق السيطرة على الكون وإخضاعه لسلطة الإنسان، إلى العلم بالخالق وخشيته. وبذلك تضع نتائجُ المعرفة الباحثَ (الإنسان) على سكة الترقي نحو القيم المطلقة من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان.

وحين تقف نتائج العلوم عند حدود سيطرة الإنسان على الكون بمعزل عن القيم، فإن هذه السلطة تتحول إلى توهم السيطرة، وتوهُّم السيطرة تجلى في عقلية قارون حين قال مزهوا بممتلكاته ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨). فكان التعقيب الإلهي ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١). فالعلم الذي اكتسبه ضخّم أنانيته فتوهم القدرة والسيطرة، فتحول العلم في هذه الحالة من مدرج مفتوح للترقي نحو القيم المطلقة، وانحبس في كنف المادة مما ينافي طبيعة العلم ذاته. والمادة وسيلة للعلم وليست غايته ومقصده، ومن طبيعة العلم الانطلاق نحو السباحة في الملكوت، وهو يتجاوز الإنسان إلى

سائر ملكوت الله، ولا يملك الإنسان من العلم المطلق إلا مقدار الماء العالق بالمخيط إذا أدخل البحر.

والخلاصة أن العلم وسيلة لتدبير شؤون الحياة، وهو في الآن اللازم وسيلة لمعرفة الخالق. والترابط بين الوسيلتين يجعل العلم في خدمة الإنسان، والانفصال بينهما يؤدي إلى انتكاسات تغرق البشرية في حمآت من الكوارث. والنماذج تترى في مسيرة البشرية، ويكفي أن نذكر في عصرنا الحديث باستخدام نتائج البحث العلمي في إنتاج أسلحة الدمار الشامل وإلقائها على الأبرياء في هيروشيما ونكزاكي وفلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وغيرها من بؤر التوتر في العالم. ولا يزال العالم يتوقع أمثال هذه الممارسات في وقت تزداد الهوة فيه اتساعا بين المعرفة والقيم ولا يقام فيه وزن للأخلاق والتربية، بل ويعتبر البعض كل ذلك معيقا لحرية المعرفة، في حين نرى أن حصر مقاصد المعرفة في تلبية غريزة السيطرة لدى الإنسان يعتبر أكبر معيق في وجه تطورها وانطلاقها.

ومما يتفرع عن هذه النظرة من نتائج أن كل علم من علوم تدبير الحياة بما فيها ما يصطلح عليه بعلوم الشريعة الإسلامية، ترتقي درجته ويرتب في سلّم الأوليات بالنسبة لحاجة البشرية بقدر ما يسهم في تيسير سبل الحياة، ويسعى في نفس الآن إلى الترقي في سلم القيم المطلقة في رحلة العودة من الأرض إلى السماء، وتلك رسالة التربية ودورها كما سنوضح بتفصيل في رؤيتنا الجديدة لفلسفة التربية الإسلامية كمساحة لحركة المفاهيم بناء وممارسة.

### الإطار الفلسفي للتربية الإسلامية

معلوم أن النظرية التربوية الإسلامية من حيث أسسها ومبادئها العامة أسهمت بشكل كبير في صياغة نظرة الإنسان إلى نفسه ومن ثم إلى الكون والحياة والمصير، سواء أكان مسلما مؤمنا بأصول هذه النظرية ومنقادا لأحكام الإسلام بفهم سديد ورأي رشيد، أو مستفيدا من هذه النظرية من باب الاطلاع على التجارب والخبرات المختلفة كما نجد عند كثير من المفكرين والكتاب المهتمين بالتربية المنتمين إلى مختلف المدارس الفكرية وخاصة المنفتحة والمنصفة منها. ونجد أنفسنا في هذه التأملات نثير تساؤلات نتلمّس معالم الإجابة عنه في مقاصد الشريعة الإسلامية فنقول:

- ما علاقة القيم الإسلامية بالأحكام الشرعية؟ وهل يمكن الاتصاف بالقيم دون الالتزام بالأحكام؟

- لماذا شرعت الأحكام وكلف الإنسان بها؟ وهل المقصود شرعا هو إتقانها والالتزام بها في حياة الإنسان فقط أم أن هناك مقصدا أسمى؟

- هل تستهدف التربية الإسلامية تربية النشء على أداء الشرائع والأحكام في بعدها المعرفي والتطبيقي، أم إن الشعائر والأحكام ليست إلا وسائل قد تحقق التربية إن قدمت بمنهج يمزج بين المعرفة والوجدان والسلوك وقد لا تحققها إن قدمت بالمنهج المعرفي الصرف؟

- إذا كانت إعادة التربية هي الوسيلة التي تعيد الإنسان إلى مركز الفلاح (الجنة) الذي تبوأه قبل هبوط آدم من الجنة، فما هي المحطات الأساسية لمسيرة العودة وما دور الأحكام الشرعية فيها؟ وهل دعوة الرسل كانت إلى الأحكام كمقاصد أم كوسائل للترقي نحو القيم؟

للمساهمة في الجواب عن هذه الأسئلة نسوق هذه التأملات.

### فلسفة إعادة التربية من الاختبار إلى المصير

إن هذه السؤالات وما يمكن أن يتفرع عنها يعيد من جديد سؤال التربية إلى الواجهة وفق سلّم يقتضي كثيرا من التفكير والتحليل ثم إعادة البناء بما يمكن أن يعيد تشكيل العقل المسلم ويرتب أولياته ويركز مجهودات الإصلاح على الأهم فالأهم.

وتفسير ذلك أن الإنسان نزل من الجنة لخلل أصاب جهازه التربوي عند الاختبار (مخالفة سلوكية) رغم قوة التكوين المعرفي، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) وغاية نزوله إلى الأرض إعادة تصفية جهاز القيم عن طريق التربية وغسل درن المخالفة بالهدى، قال تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣) ليعود مَن تفوق في اختبار إعادة التربية إلى مكانه الأصلي الطبيعي (الجنة) وقد صفت قيمه، وتنفي النار درن المخالفة عن المخطئين في تطبيق وصفة العلاج (الأوامر والنواهي الشرعية)، كما تنفي الصدأ عن الحديد، ليعودوا بعد مغفرة الله ومنّه إلى الجنة، لأن نظام القيم لدى المخطئ يظل متماسكا وإن أصابه درن مخالفة بعض الأحكام، أما الخاطئ المنكر لها ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة: ٣٥-٣٧)، خالداً مخلداً مادام نظام القيم قد انهار لديه ولم يعد قابلا للترميم، وذلك هو مصداق قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ (النحل: ١٠٨).

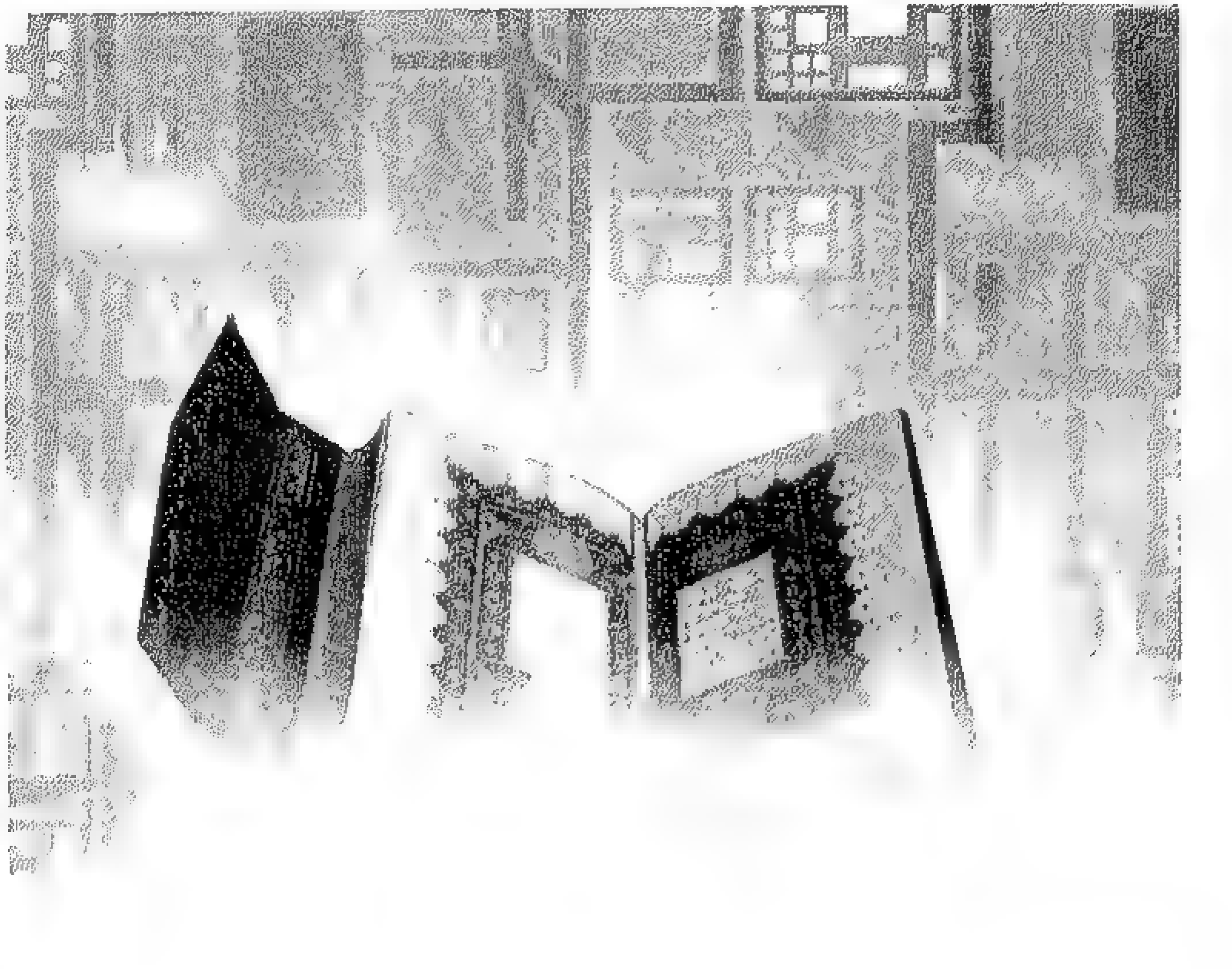
وهكذا بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين يملكون أمهر الوسائل وأرقى درجات الحكمة مزوّدين بتوجيهات وأوامر إلهية تقرب من القيم وتنهى عن سلوكات ومخالفات تبعد عن القيم. وقد بعث الله تعالى لكل أمة رسولا وجعل الرسل تترى في الزمان، وختمهم برسالة محمد ﷺ حين نضجت وسائط التواصل بين البشر وأصبحت المجموعات البشرية أكثر احتكاكا وقربا، فناب العلماء عن الرسل في القيام بواجب التوجيه والإرشاد.

و لم تكن الشرائع والأحكام إلا وسائل للتربية وليست مقصودة لذاتها، ولذلك علم رسول الله ﷺ الناس الصلاة وقال «صلوا كما رأيتموني أصلي» (رواه البخاري)، ولكنه قال للمصلين «مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعدا» (رواه الطبراني في «الكبير»). وأمر الناس بالزكاة وبين لهم أنصبتها ومقاديرها وأوجه صرفها ثم قرأ عليهم قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)، وعلّمهم الصيام وفرائضه وسننه ثم قال لهم «من لم يدَع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع شرابه وطعامه» (رواه الإمام أحمد في المسند) وقس على ذلك.

وقد يقول قائل: ما دامت الأحكام والتشريعات وسائل للتربية على القيم وليست مقصودة لذاتها، أفلا يمكن أن تكون وسائل أخرى قد تكون اجتهادية بشرية محققة لهذا المقصد؟ وهنا يفتح باب الاجتهاد على مصراعَيه ما دام الأمر يتعلق بقيم إنسانية عالمية كالعدل والصدق والأمانة والوفاء وغيرها لخوض تجارب إنسانية متعددة قد توجد في الكنفشيوسية أو البوذية أو لدى عبّاد الأصنام أو الصابئة أو حتى الذين يدينون بديانة الإلحاد ما دام التدين ضرورة بشرية لا يتخلف عنها أي إنسان.

والجواب عن هذا التساؤل واضح من خلال القرآن الكريم؛ فقد أقرّ بوجود كل الديانات والمذهبيات، واحترم حق الاختلاف وفسح المجال أمام الإنسان ليختار معتقده ومسيرته، قال تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦) وقال تعالى للرسول ﷺ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)، وقال تعالى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).. وبذلك وضع الخالق ﷻ الإنسان أمام اختبار الاختيار وذكر القرآن الكريم كثيرا من الديانات الوضعية وناقشها بقوة العقل وحجة المنطق، وبين أنها وصفات دواء لا تمكن الإنسان من الترقي نحو القيم المطلقة المفضية إلى الجنة.

وبناء على ذلك يمكننا أن نقسم سعي الإنسان نحو القيم إلى قسمين:





قسم يسعى إلى قيم «العاجلة» النسبية، فهو ينال حظه ونصيبه منها من غير ظلم ولا بخس، قال تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠)؛ فمن ابتغى العدل كقيمة في بعدها الإنساني النسبي نال نتيجة سعيه في الدنيا وما له في الآخرة من نصيب مادام لا يؤمن بها ولا يسعى إليها بمحض اختياره.

وقسم يسعى إلى قيم «الآخرة» المطلقة ويعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة فهو يرقى في سلّم القيم إلى ما هو أسمى من قيم «العاجلة»، وبذلك يكون تمسكه بقيمة العدل مثلا أقوى وأبقى أثرا، لأنه يعلم أن الفائدة المادية حاصلة في الدنيا من انتشار العدل وهي خطوة للفوز والفلاح في الآخرة، وهو هدف أسمى لدى المؤمن.

ثم إن الترقي في سلم القيم المطلقة للعودة إلى الجنة لن يكون إلا وفق ما أمر الله تعالى في القرآن الكريم وبيّن رسوله ﷺ، ومن ثم كانت شريعة الإسلام الوسيلة الوحيدة للرقي نحو هذه القيم المطلقة، وباقي الوسائل الاجتهادية الأخرى تقف عند سقف قيم «العاجلة»، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا

مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۞ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ١٨-٢٠).

وغاية الشريعة الإسلامية أن توضح هذا السبيل ولا تلزم الناس به ولا تنفي باقي السبل، فالله تعالى يقول ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩). وتلك هي عظمة الاختيار في الإسلام، لأن صقل القيم بالتربية لا يكون قسرا غير عرض النموذج الواحد، وإنما يكون بوضع الخيارات المتعددة مع توضيح وبيان أنجح الطرق وأفضل الخيارات بقوة العقل والبرهان؛ وللإنسان أن يختار ويتحمل بعد ذلك مسؤولية اختياره.

وحين يصل الإنسان بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الالتزام بالأحكام والتشريعات الإسلامية كوسيلة للترقّي نحو القيم يصل إلى التزكية، وهي الخطوة الأخيرة في مسيرة العودة إلى مقر الفلاح (الجنة) المقر الأصلي الطبيعي للإنسان ذي القيم الصافية، قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠).

### مفهوم الأمر والنهي في ضوء فلسفة القيم

إن منظورنا لعلاقة الأحكام بالقيم وهي -كما قررنا- علاقة السبب بالمقصد، تُحيلنا إلى تحليل بنية الأحكام الشرعية إلى جزئيات الأوامر والنواهي كما وردت في القرآن الكريم وفي سنة وسيرة الرسول الأكرم ﷺ والنظر إليها في سلم الترقي نحو القيم.

أما الأوامر الإلهية فهي توجيهات على طريق الوصول إلى القيم تسدد الخطى وتسرعها بقدر درجة الالتزام بها؛ فالحريص على الفرائض منها فقط أقل سرعة وحركة من الحريص على الفرائض والنوافل، ومعلوم أن السرعة مطلوبة للوصول إلى المقصد في أقل وقت ممكن ما دام العمر محدودا وساعة كل فرد علمها عند ربي في كتاب، ولا شك أن العاقل سيختار الوسيلة الأسرع. وفي هذا السياق نفهم قوله تعالى ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥).

أما النواهي فهي لدرء المحرمات والتي تعتبر في سياق الترقي نحو القيم معيقات تضيع على الواقع في شراكها الجهد والوقت، ولذلك سماها الله تعالى بالسبل حين قال في محكم التنزيل ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣) والدخول إلى السبل الضيقة الصغيرة قد يكون سببا في التأخر في انتظار التوبة والعودة إلى الطريق المستقيم، وقد يكون سببا في الضياع فينتهي الزمن المقدر لحركة الإنسان نحو القيم (العمر) وهو عالق في السبل كسفينة جانحة في الصخور لم تتمكن طواقيم الإغاثة من انتشالها فعلاها الصدأ وتآكلت ألواحها وهوت إلى قاع البحر.

وهكذا يعتبر النهي عن المحرمات في سلم الترقي نحو القيم ترشيدا لمسيرة الإنسان وليست قضاء على شهوة أو تكليفا بما لا يطاق، فمن نظر إلى المحرمات بهذا المنظور تجلّى له بلا شك نعمة الخالق في النهي عنها، وسارعت نفسه إلى اجتنابها، لأن المعادلة الواضحة في ذهنه تدعو إلى ضرورة تجنب كل معيقات الوصول إلى القيم في صراع حقيقي مع الزمن المحدود.

### ميزان الأعمال في ضوء فلسفة القيم

ويتفرع عن هذا التصور وضع ميزان للأعمال الصالحة والطالحة انطلاقا من فلسفة القيم، ذلك أن العبرة في هذا الميزان بنوعية العمل لا بكثرته، ولنوعية العمل دور حاسم في الدلالة على نضج القيم في نفس الإنسان. ولذلك كان الفعل الصغير من الأوامر قوة هائلة دافعة نحو القيم وعلامة بارزة على نضجها في النفس، وكان الفعل الحقير من النواهي علامة كبرى على ضمور القيم في النفس وسببا في السقوط في الهاوية والعودة إلى نقطة الانطلاق مما يعني ضياع كل الجهود السابقة.

ويتضح هذا من التأمل في قول رسول الله ﷺ «إن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعله يغرف له به حتى أرواه فشكر الله له فأدخله الجنة» (رواه البخاري) وأن «امرأة دخلت النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض» (متفق عليه).

ونستنتج من هذا أن الغاية ليست هي طبيعة العمل، فالرجل حين سقى الكلب قام بحركة بسيطة والمرأة ربطت الهرة لساعات، ولكن كل عمل من العملَين دليل على درجة الترقي في سلم القيم؛ فالرجل الذي سقى الكلب لم يدفعه لذلك -وقد كان لوحده في الصحراء- إلا نضج قيمة الرحمة وقيمة ابتغاء مرضاة الله في نفسه، فدفعه كل ذلك إلى الإحسان فعبد الله كأنه يراه، وذلك

أرقى صور نضج القيم وسلامتها، وفي المقابل انمحت من نفسه رذائل القسوة والرياء والاحتقار وغير ذلك مما يكون عادة سببا في العزوف عن القيام بالكثير من الأعمال الجليلة القدر البسيطة الشكل.

وأما سلوك المرأة فدل على ضعف قيمة الرحمة في نفسها وحضور القسوة والجفاء مكان ذلك، وقوة دافعية البخل على قيمة البذل والكرم، والأخطر من كل ذلك أنها لم تستحضر رقابة الخالق سبحانه وتعالى في فعلها فهي لا زالت تعتقد أن لا رقيب يحاسبها على عملها ذلك، وهذا أكبر خلل في منظومة القيم وعلامة خطيرة على انهيارها.

العلم وسيلة لتدبير شؤون الحياة، وهو في الآن اللازم وسيلة لمعرفة الخالق. والترابط بين الوسيلتين يجعل العلم في خدمة الإنسان، والانفصال بينهما يؤدي إلى انتكاسات تغرق البشرية في حمآت من الكوارث.

## منهج الترقي نحو القيم من المعرفة إلى العمل

إذا كنا قد عرفنا أن نوعية العمل هي العملة الوازنة في ميزان القيم فكيف يتوصل الإنسان إلى اختيار العمل النوعي؟ وكيف يرتب أولويات عمله في ضوء ذلك؟

نتصور أن هذا المنهج ينبني على أربع قضايا كبرى هي: البحث عن المعرفة، وطرق اكتسابها ونشرها، وانعكاس أثرها تطبيقا في السلوك، ومقومات الاستمرار والثبات على هذا السلوك. وكل قضية لها وجهان فقد تكون دافعة في اتجاه الترقي نحو القيم كما قد تكون في الوجه الآخر معيقا ومثبطا. ونكتفي ببيان الوجه الأول لأنه دال على الثاني بالضدية والتقابل.

فأما المعرفة فقد تكون دافعة حين تكون موثوقة المصدر تجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون معتمدة على كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ واجتهادات العلماء العاملين المشهود لهم بالورع والتقوى وسعة الإطلاع. ولذلك يطلب من الإنسان أن يبني معرفته عن طريق التحري والسؤال، وهو مسؤول عن المعرفة الصحيحة التي يكتسبها ويترجمها إلى سلوك دافع نحو القيم، وهذا هو سياق تفسير الإمام البخاري لقوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ (محمد: ١٩) في ترجمته لكتاب العلم في صحيحه قال «باب العلم قبل القول والعمل» وتلك هي المعرفة الدافعة نحو القيم.

أما في طرق اكتساب ونشر المعرفة فهي: تلك المسلكيات اللفظية والمادية التي يعتمدها العالم والمتعلم في نقل واكتساب المعرفة، فالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن هي أنجح الوسائل التي ترغّب الناس في تقبل المعرفة والتوجه نحو الطريق السوي وهم راضون مطمئنون تدفعهم الرغبة في السلوك، وذلك هو منهج القرآن الكريم في حفز الهمم نحو القيم.

أما العمل والتطبيق فهو بدوره قوة دافعة للترقي في سلم القيم إن كان صالحا، أو معيق إن كان طالحا؛ فأما الصالح فميزانه الاعتدال والوسطية اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وتكليف النفس بما تطيق، والمداومة على العمل الصالح والترقي فيه بتدرج.

أما مقومات الاستمرار والثبات فهي الجانب الوجداني والنفسي والعاطفي بما يوفره من شحنات قوية تغذي الدافعية نحو القيم، فكثيرا ما كان الحماس الفياض والعاطفة الجياشة والغيرة الحية دافعا نحو التضحية من أجل المبدأ، شريطة أن تكون مبنية بناء سليما متدرجا وفق المنهج السالف الذكر. فالوجدان والتعاطف المبني على معرفة صحيحة مستقيمة، وسيلة وطريقة حكيمة، وعمل وسطي، فيؤدي إلى التمازج والاندماج ويصبح قناعة راسخة غير قابلة للتغيير، ولذلك كان أحب الدين إلى الله أدومه وإن قلّ.

وبهذا يكون تقوية الجانب الوجداني والعاطفي على أسس متينة وَقُودا للسالكين طريق الحق ومحفزا للثبات عليه، ويكون ضعف هذا الجانب أو بناؤه على أسس غير سليمة، مثبطا ومنفرا يخلق الاضطراب والاغتراب.

إن بناء هذه الدعائم الأربعة لمنهج الترقي نحو القيم (المعرفة السليمة، والطريقة الحكيمة، والتمثل العملي الوسطي، والوجدان المحفز) هي صميم المجال النظري والتطبيقي للنظرية التربوية الإسلامية التي تربط بين المعرفة والقيم من أجل تنمية إنسانية شاملة ومتكاملة تضمن سعادة الدارَين.

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان -المغرب.

# عودة الغريب...!

أديب إبراهيم الدباغ *

**«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»** (حديث نبوي)

آت أَنَا يا صُراخَ الإنسان المتوجع من أعماق هاوية الظَّلام؛ قادمٌ أنا يا أنَّات الروح الإنساني المحترق بأتون العذاب؛ مُقْبِلٌ أنا يا عويلَ النَّفسِ المصلوبة على أعمدة الأسى، والمعلقة على أعواد شجر هذا الخريف الحضاري الرهيب؛ عائدٌ أَنا يا نزيف الجرح المفتوح في ضمير الإنسان على أشواك الشك والحيرة والقلق؛ مُتَسَاكِبٌ أَنَا -كأنداء الفجر- على صحارى النفوس، وظمأ الأرواح يا لهاث الإنسانية الراكضة وراء مفاوز السراب والضياع!

لقد استفزّني صُرَاخُكُمْ -يا أبناء الأرض- واستثارَ هُتافكمُ الحار اللهيف مكامِنَ الشوق إليكم في مطاوي نفسي؛ وآلمني نضوبُ النُّورِ في أرواحكم، وجفافُ الينبوع في قلوبكم؛ وأحزنني ما اجتاحَ نُفوسكم من نوازل، وما عصفَ في جَنَباتها مِنْ عاصفات كاسحات اجتَثَّتْ بِقَسوَةٍ أَصالَةَ الإنسان فيكم، وَخَنَقَتْ بوحْشية صوتَ الفطرة في أعماقكم، وَعَطَّلَتْ بِغَدرٍ مِشْكَاة الإيمان في قلوبكم... فسَادَ الظلامُ، وانْسَرَبَ مَوْجُه الحالكُ إلى أغوار النفوس؛ فإذا الإنسان ضائعٌ في مجاهل نفسه، تائهٌ في صَحَارى قلبه، ضَالٌ في ليل روحه؛ يتعالى صوتُ حزنه، ويرتفع أنين وجدانه، وتمتدُّ يَدُ يَأْسِه تقرعُ كل باب، وتَنْقُرُ كُلَّ نافذةٍ بِعَطَشٍ شديدٍ إلى قَطْرَةٍ من نورٍ، وغرفة من ينابيع الضياء.

فَهَا أَنَاذا -يا إنسانَ الضياع- تَهُزُّني آلامُكَ، وتشجيني أحزانك، ويحركُ صُرَاخُكَ الأليم عقْرَبَي ساعتي، ليقتربَ زمني ويُطِلَّ يومي. أنا إنسان القرآن والإيمان، أعود إليكم يا إخوةَ إنسانيتي بعد أنْ أَنْضَجَت المِحَنُ ذاتي، وأصلبتْ صروف الأيام عُودي، وتركتْ الأحداثُ الضِخام في نفسي وروحي جراحاتٍ ظلَّتْ تروي جنبات أرضكم من دمي، وتسقي ثراكم بعصارات قلبي النَّازف... فيا روعة القلب المثخن بجروحه كيف يسمو على عمود من أنوار دمائه ليزرع الفرحَ في كلِّ قلب؛ ويا عظمة الروح المُخَضَّب بالنجيع كيف يتعالى على سُلَّم من وَهَجِ آلآمِهِ ليمسحَ أوجاعَ الحزانَى، ويواسي آلام البائسين والحَيَارى.

خائفون أنتم مني يا أشِقَّاءَ روحي، صادُّونَ أنتمْ عني يا إخوةَ فؤادي، ولكنَّ شوقي إليكم يتدفق هُتَافاً حَاراً: «أنا ينبوع النور يا كُلَّ المظلمين، أنا نهر الضياء يا كُلَّ الظامئين، أنا أَنداء الفجر يا زهرات البشرية المُصوِّحَة، أنا سماء الشروق يا ليل الإنسان المحتضر، أَنا أقباس الحقيقة النيِّرة يا ركام الأباطيل، أنا ربيع الإيمان يا أشتاء الحضارات، أنا أصداء القرآن يا أَصِمَّاء.»

غريب أنا بينكم يا أبناء أُمّي؛ إنسانٌ، يلفني الغموض في زعمكم، ويلفعني الضباب في ظَنِّكم، أُسطورة كبرى تملأ خيالكم، وترهبُ أحلامكم. صوتي غريبٌ بينكم لأنه ليس كما تعودتم سماعه من أصوات، نبرة صوتي مبرأة من كل مَسْخٍ وزيف، حتى لكأَنَّ الحياة بكل أصالتها وعمقها وقداستها هي التي تهتف بلساني، وتتحدَّرُ من بين شفتيَّ شلاَّلَ نشيد علويٍّ يغسل القلوب من أدرانها، ويطهِّر الأرواح من أوصابها. وفي صوتي إرعادٌ كإرعاد قلب السماء المشحون بالأضواء في طيّات الغيوم، وفيه إبراقٌ كألسنة الوميض المندلعة على حواشي الليل المحلولك السواد.

إني أتلألأ -يا إخوتي- بنور الله، إني أحترق باللهب الأنوس الذي تُفَجّرُهُ كُلُّ كلمة تتوهج على شغاف قلبي من كَلِمِ الله.. أَنا عبد الله؛ تَوَقَّلْتُ قِمَمَ الحكمة بقلبي الجريح المتعب، وارتقيتُ بجَناحيَّ الكسيرَين سلالم المعرفة، وتسلقتُ بدمي النازف خيوط الشمس المعلقة بقلب السماء، ودخلت كهف الضياء كهف الغربة الروحية والربيع الإلهي الضحيان، بحرقة قاتلة، وبظمأ مميت؛ لأنهلَ من منابع القرآن، وأترشّف من جداول ضيائه، وأَعُبّ من عيون أنواره، ثمّ أنحدر بذاتٍ متوحّدة لا تعرف الانقسام، وبنفس يُظلُّها سلامُ الله فلا تعرف الاحتراب، وبكيانٍ متساوق لا يعرف النشاز؛ لكي أضعَ يدي على نبض العالم المريض، وأسكُبَ في قلبه بروق الوحي، وأصُبَّ في روحه المدنف إرعادَ القرآن؛ لينتفض العالم من غفلته، وتصحوَ البشريةُ من أوهامها على جلجلة صوتي الذي لن يصمت بعد اليوم؛ لأنّ في صمته موتاً للحقيقة في قلبي، وموتاً لقلبي الذي تقتله الحقيقة المحبوسة بين جدرانه.

ومع هدأة الصفاء في صوتي، ومع موج النُّور المتساكب من أغوار كُلِّ كلمة يطلقها لساني، ومع الحرف الذي يتحدّر إلى سماء القلب المظلم ليتألق فيه كنجمة الصباح، مع صوت الصدق والأصالة والعمق، يرتفع صوت ألف «مسَيلمة» من أنبيائكم الكذَبة هاتفاً في جموعكم الحَيْرى: «طاردوا الغريب، أبعدوه، ارجموا هذا الطارئ على عالمنا بالحجارة، املأوا فمه تراباً، وحَصّنوا أبواب قلوبكم دون كلامه، وسُدُّوا منافذ نفوسكم بصفائح الظلام، واملأوا مساربَ أرواحكم أمامه بمذاب الليل من أوهامكم، واحذروا من أَنْ تقع كرة أرضكم -مرة أخرى- بين ذراعيه فيلهب أشواقها الخامدة إلى السماء من جديد.»

أعيروني أسماعكم أيها المتشوقون لصواعق الحق المحرقة، فأنا سماء الحق التي تمطر أرض أباطيلكم بجمراتها، وتلهب غابات أوهامكم بحرائق من شفق أصباحها.

انتبهوا! فإنّ الروح الذي يخاطب أرواحكم مرصود للهَيمَنة على الروح الإنساني العام، ليعيد إليه نضارته، ويَسْتَنبتَ فيه من جديد شجرة الشوق إلى الله، وليرتفع بهذا الروح إلى القِمَم الشاهقة من الوعي المتفتح على عوالم الإنسان العميقة الشاسعة أو على آفاق الفكر الكوني الملتهب بشمس محبته لله ربِّ العالمين.

أنْصتوا جيداً -يا بني أُمّي- فإنني أنشر على الأرض فجر حضارة جديدة تصحّح النفس الإنسانية؛ وتضيء ما أظلَم من معاني الحياة؛ وتصل بشريان نورانيّ بين نبض العالم ونبضات الوحي؛ وتسكب في قلب الأرض المتحجر القاسي دفقاً رحيماً من خفقان قلب سيدنا محمد ﷺ الأمين على أصالة الحياة وكرامة الإنسان.

(*) كاتب وأديب -العراق.

## موازين

أيها الشاب! عندما نريد قراءة كتاب ما، نبدأ بفصول سهلة، وأجزاء مثيرة تساعدنا على الاستمرار. فإذا اعترضتك جبال شاهقة، وتلال متعاقبة، ومفاوز شاسعة في الطريق، فأنصحك أن تقسّمها إلى أجزاء صغيرة يسهل اجتيازها؛ وإلا فسوف يبدو لك الطريق ممتدا إلى لانهاية، فيدب اليأس في قلبك، وتضعف عزيمتك، وتخور قواك، فتستسلم لهزيمة مريرة.

* * *

أيها الشاب! اعلم أن إحياء كياننا الفردي والاجتماعي الذي تداعت أركانه على مر العصور، لن يتحقق بقفزة واحدة أبدا. فذلك سراب ضائع. والحل أن نبدأ عملية الإحياء خطوة فخطوة إلى أن تتكامل الأركان، فتعود حيوية الروح والجسد إلى سابق عهدها. وذلك سيبعث الأمل الخامد في القلوب، ويقوي العزائم المكنونة في النفوس، وسنرى فجأة أننا قد قطعنا مسافات شاسعة، وبلغنا نهاية الطريق، فتنطلق ألسنتنا بالحمد لله سبحانه.

* * *

أيها الشاب! إياك أن تسير في طريق بلا غاية، فذلك جهد ضائع في سبيل لا شيء، وخطر عظيم يؤدي بصاحبه إلى مهاوٍ مظلمة. إنّ غياب الغاية في السير يطفئ الأمل، ويميت الهمم، ويصيب العقيدة في صميمها.

* * *

# في الطريق إلى الحياة الأبدية



نورالدين طوبجو *

أنتم تعلمون يا أصدقائي بأنني عندما مت كنتم مجتمعين حول فراشي، كانت نظراتكم مسمرة عليّ كما لو كنتم تشاهدون لأول مرة إنسانا يموت، ولكن الحقيقة هي أنكم كنتم تحبونني لأول مرة. أما أنا فقد كنت سعيدا إذ أرى حولي أول اجتماع مفعم بالحب الخالص؛ هذه اللحظة التي لا يحصل عليها الإنسان إلا عندما يكون في طريقه إلى الموت.

كنت عطشا إلى حياة مثالية عندما فارقتكم، ولكنني مع ذلك كنت قد مللت دنياكم المملوءة بالألم والشقاء. كنت تعبا إلى درجة أنني كنت أحس بحاجة إلى أن أنسلخ من الوجود وأن استريح في حضن اللانهاية ألوف السنين. وفي المساء بعد ثلاثة أيام عندما حسبت الأنوار الخافتة حولي نجوما في السماء، وبعد أن ودّعتكم كلكم واحدا واحدا ابتسمتُ للملك الذي حضر ليأخذني.

ومع أنني فارقت بدني إلا أنني حملت معي بعض أحواله. أما أنتم فقد فعلتم بجسدي ما لم يفعل به عندما كنت حيا؛ انحنيتم عليه وبكَيتم، ثم حملتموه على أكتافكم. لم تكونوا ترونني ولكنني كنتُ أراكم. وعندما دفنتموه في التراب الذي جاء منه، أحسست أنه يلقى حياة جديدة لا مثيل لها، كنت أحس بأن جسدي الذي اختلط بالتراب لا يزال يحمل مني أشياء وأشياء، كان يحس من هذا اللقاء لذة لم يتذوقها أبدا في الحياة. أما أنتم فقد كنتم تبكون عليّ لأنكم لم تكونوا تعلمون إلى أين ذهبت، أما أنا فقد عشت في الحياة لمثل هذا الموت، وقد وصلت إلى أملي. عندما كنت بينكم كنت مثلكم أخشى الموت لأنني كنت أحبكم وكنت أكره أن أفارقكم جميعا. وعندما انحنى عليّ ملك الموت لم تلاحظوا الابتسامة التي ارتسمت على وجهي، وبدوري لم أستطع أن أقول لكم شيئا عن حالي.

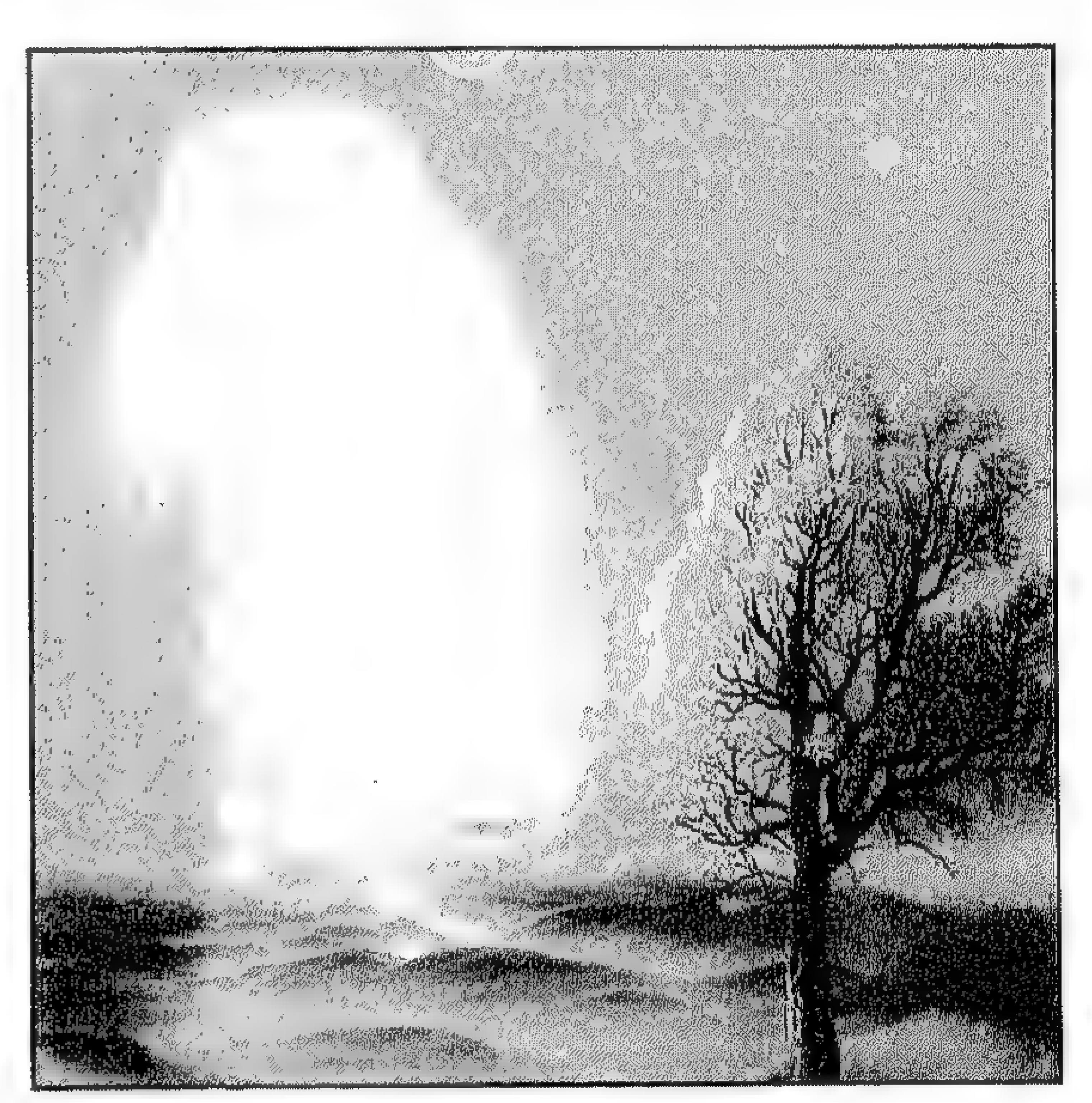
**لقاء الأحبة**

و لم يستغرق انتقالي من دنياكم إلا لحظة قصيرة، وبعد أن دفن جسدي قلت للرسول: «إلى أين نحن ذاهبون؟» لم يقل لي: «إلى حيث تريد» وإنما أجابني قائلا: «إلى حيث كنتَ قد أردتَ» ثم أضاف: «إن الحياة التي عشتها لم تكن إلا تهيئة لك لحياتك الحقيقية هنا، وما ستلقى هنا إلا الأشياء التي طلَبتها في تلك الحياة». سألته: «وهل أجد كل ما كنت أطلبه؟» قال: «ستلقى كل ما كنت تطلبه بإيمان وحبّ ووجد، كل ما كنت تطلبه بحق». فرغبت أن أكون مع والديّ ومع روحين عزيزين توفيا قبلي. كيف بلّغتُ وأفهمتُ هذه الرغبة؟ لستُ أدري. غير أنه أجابني في التو: «ولكنك معهم الآن». ملكتني الحيرة، لم أكن أصدق عيني، لقد كنت معهم. نعم كانوا هم أنفسهم. إن الوسائل التي تأكدت وعرفتهم بواسطتها كانت أقوى من الوسائل الدنيوية ألف مرة؛ كانوا في أجمل وأحب أحوالهم، في الصورة

التي لا يمكن رؤيتها إلا في الأحلام. ولكن أكنت أرى بالعين وأسمع بالأذن وألمس باليد؟ كلا. إن وسائل معرفتي أصبحت مَلَكَةً وقابلية عندي؛ بهذه الملكة كنت أرى أقوى من رؤية العين، أسمع أقوى من سماع الأذن، ألمس أقوى من لمس اليد.

**المحكمة الكبرى**

سألت رفيقي: «ومتى سنقف أمام المحكمة الكبرى؟» قال: «نحن الآن هناك. انظر حواليك!». كنا في ميدان كبير ليست له نهاية، وكانت القوافل الإنسانية بمختلف هوياتها وأحوالها تملأ جوانبه، وفي الوسط كانت فسحة كبيرة حيث كانت جميع القوافل الإنسانية وجميع الأفراد يأتون هناك ويحاسبون فردا فردا. كان ينادى على كل فرد عندما يحين دوره للمثول أمام المحكمة حيث كان يعترف بلسانه وبوجهه وبلحمه وبجلده ما اقترفه في



الحياة الدنيا. لم تكن هناك حاجة إلى شهود، إذ إن كل شيء وكل ذرة كانت تنطق عندما يحين وقت الكلام، بل إن الحادثة نفسها والفعل نفسه كانا ينطقان. وعندما جاء دوري دُعيت إلى مكان الحساب الذي كنت أرقبه برهبة وإشفاق. تكلمت ذنوبي نفسها، أما أنا فقد خجلت، وأحاط بي جميع الذين كنت قد أسأت إليهم، وكان أكثر خجلي من الذين ظلمتهم. آه! كم كنت ظالما دون أن أدري. لقد كنت أحسب نفسي رحيما رقيق القلب. كم كنت مقترفا الظلم بلساني إن لم يكن بيدي، وبقلبي إن لم يكن بلساني. ومن حسرتي وقسوة شعور الخجل الذي أحسست به في حضور الذين ظلمتهم. تمنيت لو أنني ظُلمت في الدنيا و لم أظلِم، أو لو أنني قُطعت إربا إربا و لم أظلم. أما صاحب المحكمة الكبرى فقد كان يرى ويشاهد حالي. وضع ذنوبي في كفة الميزان، ووضع وجدي ورحمتي في الكفة الأخرى، فرجحت الأخيرة ونالتني المغفرة الكبرى.

**عالَم الأبدية**

وعندما بدأت رحلة الحياة الأبدية في جنان الخلود رأيت الجميع هنا يعيشون في أجمل وفي أحب الأحوال إلى قلبي. كان الإنسان يتكلم مع جميع الأشياء، وجميع الأشياء تتكلم مع الإنسان. هناك إنسان متمدد وهو يعانق جبلا، وآخر يسيل مع الماء ويتأمله في الوقت نفسه. بعضهم ملتحفون بألوان الشفق الورديّ، وقافلة أخرى فتحت أجنحتها نحو السحاب جالسة على عين كبيرة نابعة من حضن غابة عبقة الأرجاء، يشاهدون جميع الوجوه الجميلة ويستنشقون عبير الزهور جميعها أمام المياه الباردة النابعة من الأعماق وكأنها أنوار تفور. أمامهم جميع الوجوه التي حلموا برؤيتها، فحققوا آمالهم بالصحبة الكريمة التي تمنوها طوال حياتهم، فوصلوا إلى اللذة الأبدية لجميع الأشياء التي أحبوها وتمنوها والتي ذاقوا منها -ولو قليلا- ورغبوا فيها في الحياة الدنيا. لقد استطاعوا في الدنيا أن يجدوا طريقا لنقل أجسادهم إلى دنيا الروح، وأن ينظروا إلى عالم الحقائق وإن كان من كوة ضيقة. كان هؤلاء أرواح الذين لم تكن عبادتهم عن خوف ولا عن عادة، وإنما كانت عن تأمل وعن حب وعن وجد وعشق. قد هيأوا أنفسهم لهذا اليوم عن علم، فجميع أفعالهم وحركاتهم في الدنيا كانت عبادة. والحقيقة أن الحياة الأبدية نتيجة ضرورية للتهيؤ المستمر الدائم في الحياة الدنيا، وليست منظرا ينكشف في لحظة واحدة خاطفة من وراء الأستار. والإنسان يستمر على الوتيرة نفسها التي انتقل بها من هناك. إن الآثار التي أنجزناها حتى موتنا ما هي إلا جذور للشجرة التي ستستمر بعد الموت، أما أغصان وثمار هذه الشجرة فتابعة لنوع هذه الشجرة التي زرعناها في الحياة. ويستمر الروح في النضوج من النقطة التي كان قد وصل إليها قُبيل الموت؛ والعبرة هي في الوصول الصحيح إلى الموت، أو بتعبير أحد الحكماء: «معرفة كيفية الموت».

أما الاشياء والأمور التي رأيتها في عالم الأرواح التي وصلتْ إلى شاطئ السلامة فهي تَجلُّ عن الوصف. رأيت الرجال والجبال يتسامرون. رأيت الجداول وهي تتكلم مع الناس وتهب لهم مذاق جميع الأشربة دون أن تكون هناك حاجة إلى الشرب. رأيت الأرواح التي بلغت أمنياتها تسبح في أودية واسعة برذاذ المياه التي كانت كتل الثلوج الناصعة ترشها عليهم. رأيت

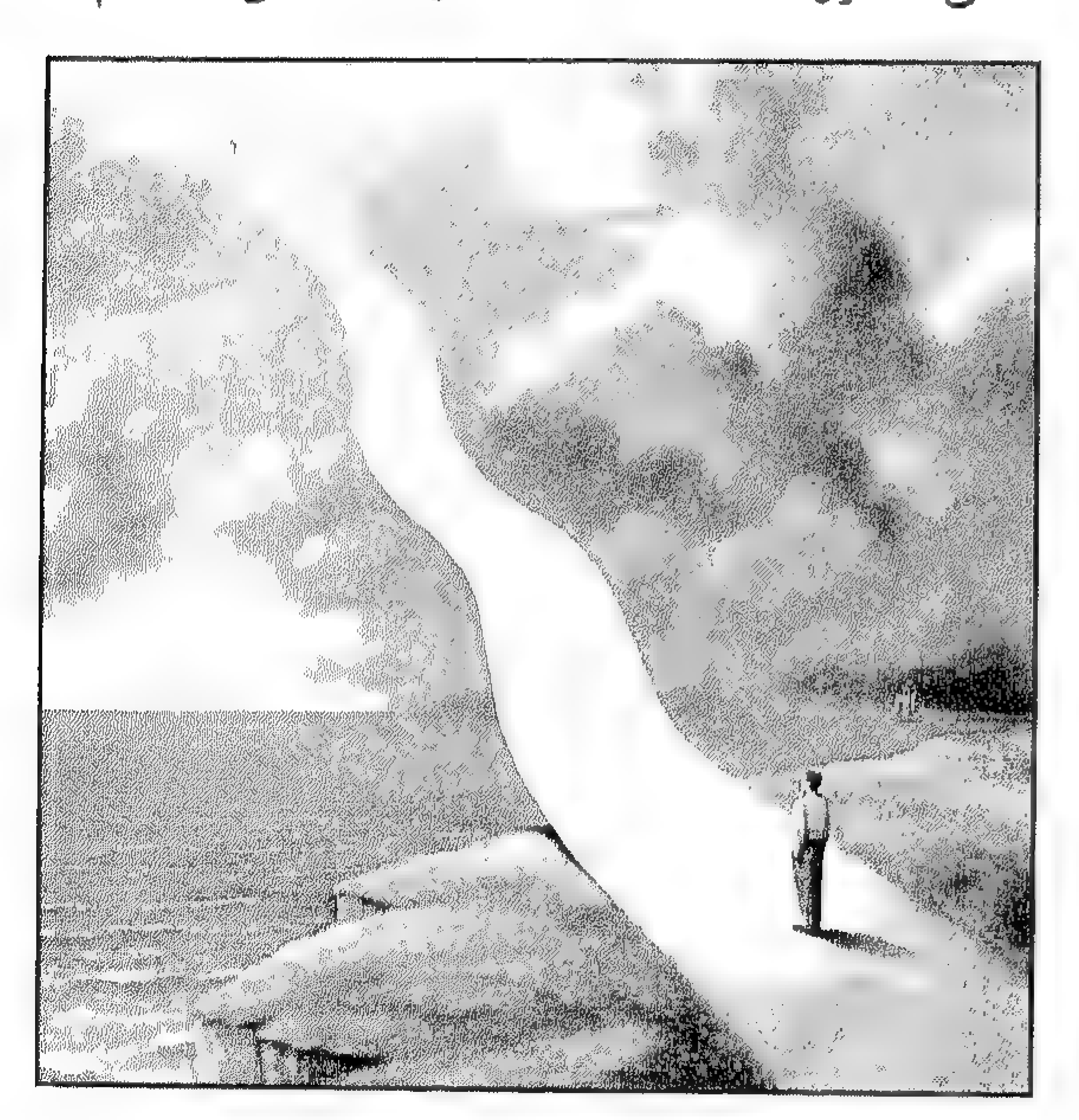
الغابات التي لم تطأها من الأزل أقدام الآثمين تتماوج في أرجائها وتمتزج ببعضها أنوار الشموس الخضراء والوردية مستغرقة في تأمل آلاف العوالم. رأيت الشموس التي تذكر كل واحدة منها روحا صالحا يعيش في عوالم ثملة من الوجد والعشق، في عوالم لها وضوح العلم وحرارة الحب ووسعة الأمل.

## عجائب الجنة

أحيانا كانت رؤية جمال وجه تُغرق هذا العالم بأجمعه في الجمال، وأحيانا كان ميلاد ذكرى جليلة يغمر جميع الأرجاء بضياء الشموس؛ إذ إن أي عبادة في الدنيا تجعل كل شيء أبديا. وعالم الجنة هذا مكان للذين كانوا يجدون الطمأنينة وراحة البال في أقل الأشياء، وليس للذين تكثر مطاليبهم ولا تنتهي. رأيت الصابرين يتبوأون هنا أعلى الدرجات. وكنت قد تذوقت نماذج من هذا الجمال -وإن كان بمقياس أقل- في الحياة الدنيا. والحقيقة أن أسعد لحظات حياتي كانت لحظات التأمل الذي كان مظهرا خارجيا للطمأنينة الروحية عندي. رأيت هنا الرحمة المنهمرة من الأعالي التي لا نهاية لها إلى الأرض التي لا نهاية لها. حضرت مجالس الصحبة بين الأنبياء والأولياء. شاهدت حكمة قوانين الكون التي كانت المعجزة الوحيدة التي تعرفونها في دنياكم، وشاهدت توزيع العدالة الإلهية هنا في ميدان القدَر. ومع أنكم كنتم غافلين عنها فإن هذه العدالة كانت مقسّمة بأكمل وجه في الدنيا. تأملت بكل شوق ولذة وجه «الخير» الذي هو وراء كل عمل حق. علمت أنّ الدنيا -التي كنتم تحسبونها دارا للشقاء والألم- ما هي إلا ممر للبصيرة وللحكمة. استرحت على الجسر الموصل من الروح إلى الله. تخلصت من الوحدة القاتلة. تخلصت من هذه الوحدة التي كانت أكبر عذاب لي في الحياة الدنيا، والتي كانت تمزقني بين كل شيء وبين كل موجود، والتي كانت تفصلني عن نفسي. لم يكن لي هناك من بينكم صديق حقيقي. عشت وحيدا بينكم، أسيرا لهذا العذاب. كنت وحيدا في الليل وفي النهار، في طفولتي وعلى فراش الموت، في غرفتي وبين الناس. عندما خُدعت وعندما مُدحت، في الغربة وبين أحبّائي. كانت الوحدة هي الداء الذي لم أجد له دواء في الدنيا، لكأنني عشت لها وتمنيت الموت دائما للخلاص منها. هذا هو الداء الذي تخلصت منه هنا.

## الشوق إلى الله

وأخيرا اشتقت إلى «الرب» الذي مكنني من المثول بين يديه مرات في الدنيا دون عذاب ولا انتظار. سألت رفيقي المَلَك الذي ظهر بجانبي في تلك اللحظة: «أين هو؟» قال: «ولكن ألا تراه؟» قلت: «إن هذه الموجودات التي أراها هي نفسها التي كنت أراها في الدنيا ولكنها الآن في وضع الكمال وفي أشكالها الأبدية المطلقة، ولكن أين صاحبها؟ إنّ لكل مُلك صاحبًا، وأنا الآن أبحث عن صاحب هذا الملك». ولكن دليلي أسكتني -وكأنه قلب تعرض لإهانة- بلسان تمتزج فيه الرحمة مع الحيرة والتهديد قائلا: «أأنت مجنون!!... أيمكن أن يكون هناك شيء «سواه»؟ وأمام هذا التنبيه رجعت إلى نفسي: أجل! في كل شيء هو هو هو، لم أكن منتبها من قبل. ففي كل موجود كانت تطل أعين قدرته. لقد كنت في الحضرة العظمى، اهتززت بعنف قائلا: «يا رب!»، قيل: «تكلم!»..



ليس بكلمات، ليس كإنسان، بل كشعور لانهائيّ وكقدرة لانهائية، لا زمان عنده ولا مكان لسواه؛ لا جديد ولا قديم، لا مولود ولا ميت، لا غير ولا شبيه، لا بادئ ولا منتهي، لا سبب ولا نتيجة، لا «لا»، ولا شك. كنت في سعادة وفي فرحة كفرحة من يولد ولادة أبدية، فرحة لا يوجد مثلها أبدا في الدنيا. بلا صوت وبلا اهتزاز وبلا سبب، كأن جميع المخلوقات كانت تُخلق في تلك اللحظة، وكأن كل فرحة هذا الخلق تملأ وتفيض من نفسي. في أي حال كنت؟ أين كنت؟ نسيت كل هذا، لأن جميع الأشياء كانت قد انمحت. كنت قد غبت عن نفسي. في هذا العالم الذي انمحى فيه الزمان والمكان. كان هناك شيء واحد... شيء حقيقي واحد فقط: «هو».

(*) من كبار المفكرين والأدباء في تركيا، توفي سنة ١٩٧٥. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

# البحث عن فرس إسطنبول

فريد الأنصاري *

إلى وارث السر الأستاذ «فتح الله گولن»

هل غادر الغديرُ نبضَ صخرهِ؟
أم هل جفاه غاضبا سناءُ برقهِ؟
فأيْنَها.. تلك التي كانت هنا
ما بَين مائه وعطره؟
تشرب من أشعّة الندى...
وتلثم الثَّمر..!
أليس ههنا رأيتُها تسكن في معابر الشَّجر؟
وذات غفوةٍ.. تبددتْ أطيافُها خلف الرّبى..
كأنما امتطتْ شعاعَ الشمس ثم غربت
فأصبحت أفئدة الأشجار فارغة!
وأرسل الغديرُ بينها أغرودةَ الحَزَنْ!
قيل لي: مرّت بها الخُيول عند بابة السُّرى
وركضت يسكنها الصهيلْ!

وقيل لي: قد رُئِيَتْ عند المساء عارِيةْ
تدخل بحر «مرمَرَة»،
وتركتْ على الرمال حافراً مُرَقَّماً
وأثرا يشبه غصن شَجَرة..

يا سيدي البوسفور!
برَبّكَ الذي بَرَاكَ بَين خافقَين!
تَنْقُلُ من رسائل المحبة السلامْ
أقسمتُ أن تصغي إليكَ!

مرجانةً من نورْ
أو صَدَفَةً تُخرِج من لُؤلُئها
هديةً لها؛ لعلها تعرفني
فتشرق «إستطنبول» من جديد!
وقيل لي: قد خرجت من متحف قديمْ
واخترقت -يا عجبا- كلَّ العيون
وأنشدت على «أبي أيّوب» حزنَها
حتى بكى الحمامُ حولَها
واصَّدّع السورُ القديم!
فلم يُعِرْهَا أحدٌ بعضَ الأسى..! ثم اختفتْ!
وقيل لي: قد رحلتْ.
وزعموا أن فتىً شاهدها تركض في «إِزميرْ»
ثم اختفت بين الكرومْ!
وَيْحي، أنا المعذب المجنونْ!
أَكُلّما التقطتُ من أخبارها خيطَ السّنَا
خطفه الظلامْ..؟
«وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ من يبيعني
بها كَبداً لَيْسَتْ بذَات قُروحِ؟»
«أبَاهَا عَلَيَّ النّاسُ لاَ يشترونَها
ومَنْ يشتري ذا عِلّةٍ بِصَحِيحِ؟»

يا سيدي البوسفورْ!
تلك الرياح مزّقتني بين شاطئيك موجةً

أو حيرةً من رجفة الخريفْ...
فأخْبِرَنّي عن سفينةٍ
قد قيلَ لي: مرت هُنا تحمل غابةً صنوبريةً
فلم تزل تمخر حُزْنَ البحرْ
حتى رست على مساء «التلّة العليا»
ثم ارتقت معراجَ ريحٍ عابرٍ..
واندثرتْ!
وقيل لي: بل غادرت إلى غروب «الدَّرْدَنيلْ!»
حيث الشموسُ لا تنام أبداً..!
وإنني أَذْكُرُ من غرامها حبَّ الشعاعْ
فلم تزل تقطف من سنائه وَرْدَ الصباحْ
حتى أضعتُ طيفَها وَاحَسرتي..!
بغفوتي!
يا سيدي البوسفور!

وذات ليلة رأيتها تصلّي فَجْرَهَا..
فقمتُ كالحصان راكضاً
حَتى أتيتُ حيَّ «فاتح»
وقلت للإمام: سيّديَ أنا المريدُ دُلّني!
فقال لي: أفي الصلاة؟
يا سيدي! قلبي الذي قد كان وحدةً
مزّقه حُبُّ البحار خفقةً فخَفقةً!
يا سيدي أنا المريضُ دلّني!
فقال لي: وَيْحك يا وجه الردى!
أأنت من يجيء من «فاسٍ» مهاجرا؟
يحمل في عينيه مَهْرَها؟
قلت: نعم؛ فأينَها؟
فقال لي: قدَرُكَ الأسفارُ تَتْرَى دونَها يا ولدي..!
مآذنُ «إسطنبولَ» أيقظتْ دموعهَا...
فرحلتْ..!
وما لنا من أثرٍ سوى الذي ترى!

فاركبْ خيولَ الحزن إنها هناكْ
تعيش في «بَارْلاَ» وتشدو وَجْدَها
على غصون القَطِرَانْ
فلم تزل بخلوة الأشجارْ
تَشْهَدُ ذَوْبَ الشمسِ في بحيرة الأسرارْ!

وقيل لي لربما تكون غادرتْ سرّاً إلى «إزميرْ»
لتقرأ الحروفَ خُفْيَةً
على سنَا الأقمارْ
في أسطر الكُرومْ
والتين والزيتون
يا سيدي الإمام دُلّني!
فإنني أنا الحيرانُ بين أنجم السَّفَرْ!

وقيل لي -يا سيدي البوسفور- ربما تجيء من طريق «وَانْ»
تحمل من عبيرها ذكرى انجذاب الرُّوحْ
وتنثر الأزهار في الطريق للرياحْ
وقيل: بَلْ لغَابَة «إِسْبَارطا» جمالٌ يجذب الأطيارَ والأمطارْ..
فاركبْ لهاتَ القلب نحوها
فربما لَيْلاَكَ في سفوحها تحوطها الغزلانْ
مخطوفةَ الأبصارِ من جمالها..
وقيل لي: بل هي في «بُورْصَه»
تلتقط النجومَ والحجارةَ الكريمةْ
تَخُطُّ فوقَ قمّة الثلوج (نُون
وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

يا سيدي البوسفور!
ها غيمُك الجليلُ يزدهي بدُرّه الجميل
فاقْرَأْ سلاَمَ البرق للشطآنِ في مدائن الأحزانْ،
وقل لهم: سنلتقي بموعد الأذانْ!
إذا تحرك الحجيجُ في مسيرة النخيلْ
يُكَبّرُ الإمامُ أولاً
ويَشْرَعُ الصهيلْ...!

---

(*) جامعة مولاي إسماعيل ورئيس المجلس العلمي بمكناس - المغرب.






إلى كل القلوب الحزينة، إلى كل الأرواح الحائرة إلى الإنسانية... هاهو ميلاد نور جديد ينير لنا معالم الطريق والطريقة المحمدية. بيركاتكم تستمر أعمالكم والله خير موفقا وحافظا .

**محمد الحسيني / مصر**

كنت في غاية الفرح والسرور لما اطلعت على العدد الثاني من مجلة حراء، والتي تعد تجديدا في الصحافة الإسلامية. وكم سرني أن تكون بهذه الموضوعات الشيقة والإخراج المميَّز. وإن شاء الله تكون إضافة جديدة في عالم الصحافة وأرجو أن أراها في كل الأسواق العربية.

**خليل محمود الصمادي / فلسطين**

أصحاب المعالي «حراء».. جزى الله خيرا القائمين عليك وأثابهم خيرا بخير. أما بخصوص ما نشر في صفحاتكِ فهو شيء يبشّر بخير ونجاح، ويسد ثغرا لم يكن لأحد أنْ يقف عليه، ويساهم في غلق باب كان مفتوحا أيضا. نتمنى المسارعة في إصدارات أعداد جديدة.

**منير أديب / مصر**

أيها الإخوة الكرام

ما أشد فرحتي أن يبادر إخواننا الأتراك بمد جسور للتواصل بين إخوالهم في الدين عن طريق مجلتكم الكريمة. لقد كنت أتمنى أن تمد الجسور من زمن بعيد، وأسأل الله أن يوفقكم إلى ما يحب و يرضى.

**أحمد / مصر**

لقد حظي العددان الأول والثاني من مجلة حراء باهتمام كبير منا. إنهما بحق مثار إعجاب وتقدير لدى أوساط المثقفين الذين أعرفهم. متمنياتي لمجلة حراء بالتوهج الدائم، مع رجائي لفريق التحرير كله بدوام العافية والطمأنينة.

**د. الحسن الغشتول / المغرب**

حراء، ذلك الغار الذي آوى سيدنا رسول الله ﷺ وهو يتحنث فيه... وهذه المجلة شعرت بها ملاذا لكل مسلم فكرا وعلما وصفاء... أشكر أسرة التحرير على جهودها وجزاهم الله خيرا..

**خالد قنطش / سوريا**

شاءت الأقدار أن أرى عددا من مجلتكم الغراء «حراء» في أنواكشوط. وقد أعجبت به كثيرا، نظرا لما تضمنه من مواضيع جمعت بين المتعة والإفادة بأسلوب ربّاني رصين يسمو بالقلوب إلى محبة المصطفي عليه أفضل الصلاة والسلام. فجزاكم الله خيرا عنا. وهي في الحقيقة تمثل إضافة كبيرة للمجتمع الموريتاني المحب لنهج المصطفي وسيرته العطرة المرتبط بالدين الأسلامي وتاريخ وأمجاد هذه الأمة.

**محمد إبراهيم / موريتانيا**

ربما تكون تلك هي المرة الأولى التي تُصدر فيها مؤسسة تركية مجلة موجهة للجمهور العربي بعد انقطاع طويل عن اللغة العربية التي تم محاربتها منذ عام ١٩٢٤.

يأتي صدور مجلة «حراء» بسماتها الإيمانية في وقت تشتد الحاجة فيه إلى التمسك بالإيمان، حيث تعصف أنواء أخلاق السوق والعولمة بخيام الإيمان والأخوة. ووقت ارتفع فيه منسوب التدين الشكلي الظاهري وانخفض فيه منسوب حقيقة الإيمان وأخلاقه في نفوس أبنائه. كما يأتي أيضا صدور المجلة متزامنا مع محاولات يقوم بها العقلاء من أبناء الأمة الإسلامية لمد جسور التعارف والتفاهم والتقارب.

ومن ثم فإن المجلة تأتي وكأنها استجابة لشعور متبادل على ضفاف الأمة بالشوق إلى اللقاء عبر تلك الجسور، وبقي أن يرد العالم العربي بخطوة وخطوات على الجسر في الاتجاه المقابل.

فالسوق الثقافية فوق الجسر تشكو من فقر في المترجمات العربية إلى التركية فضلا عن المترجمات التركية إلى العربية، كما أنها تشكو فقر الإطلالات الثقافية العربية على القارئ التركي من خلال صحف أو مجلات أو مواقع موجهة إلى القارئ باللغة التركية.

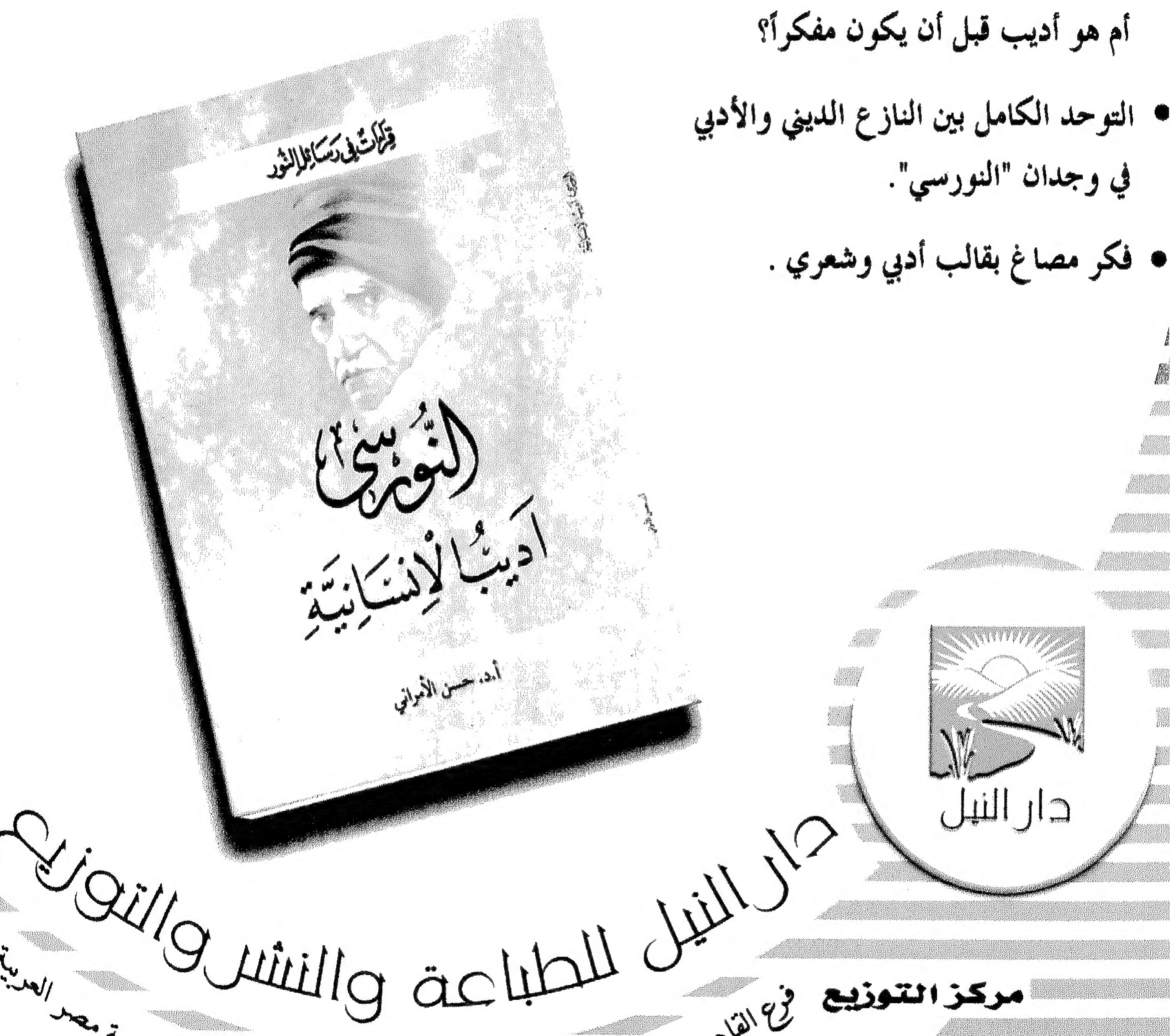
**مجدي سعيد / إسلام أون لاين نت – مصر**

# قراءات في رسائل النور
# النورسي أديب الإنسانية

تأليف: أ.د. حسن الأمراني

- أهو مفكر قبل أن يكون أديباً؟

  أم هو أديب قبل أن يكون مفكراً؟
- التوحد الكامل بين النازع الديني والأدبي في وجدان "النورسي".
- فكر مصاغ بقالب أدبي وشعري .






## شتان بين ناظر وناظر

كل شيء غني عن البيان

فالكل رسالة من الرحمن

آه !.. كم من محروم من هـــذا العرفان

يلهث وراء الغير وهو عن الخالق غفلان

